زمن السقوط

سيد أمين

حروف بارزة

هذا الرجل الذى يحمل مبادئ الصعيد وعبق الوطنية وسمرة وادى النيل كان جديرا أكثر من أى إنسان كى أهدى إليه أول عمل أدبى لى .

هناك كثيرون لهم فضل كبير علىّ . أما هو فإنه يمثل الخط الفارق فى حياتى .

إنه أول من أخذ بيدى ، ليقيلنى من عثرتى ويقف معى موقف الاخ والصديق والمعلم .

إنه الكاتب المناضل مصطفى بكرى

سيد أمين

المؤلف فى سطور:

- ولد عام بقرية الكرنك بأبو تشت - قنا
- التحق بكلية الآداب قسم الصحافة بسوهاج ١٩٨٩
- عمل محررا بجريدة الأحرار عام ١٩٩٤ فى اصدارها اليومى
- يشغل حاليا سكرتير تحرير تنفيذى جريدة « الاسبوع »
- عضو نقابة الصحفيين
- عضو نقابة العاملين بالصحافة
- عضو الهيئة العالمية للصحافة
- رأس تحرير عدة صحف قبرصية
- له عدة مؤلفات تحت الطبع

حقوق الطبع محفوظة للناشر

السعر

شركة أمل للاعلام والنشر تقدم :

زمن السقوط

سيد أمين

قبل أن تقرأ

أصدقائى، اعتذر لكم وانتم تقرأون هذا العمل عن أية عيوب قد تكتشفونها، وإذ اشكركم على جهدكم الذى ستبذلونه فى القراءة أريد أن أوضح أنه عمل متواضع يسرد قصة من وحى الخيال، هى أولى أعمالى الأدبية، وانني أعد بالتجويد فى الأعمال القادمة، إن شاء الله.

إهـــــــداء

إلى أمى ..إلى أبى ..إلى أصدقائى الكثـــيـــرين ..إلى كل قلب .. كل ضمير .. إلى الأوفياء ..الأعزاء..إلى كل من عرفتهم واقتربت منهم أو اقتربوا منى ..إلى كل من أحب

أهدى هذا العمل المتواضع

لم تزل بعد آثار النكسة، كل النفوس محبطة، والأحلام محطمة والفوارق بين إرادتين متناقضتين لا تكاد تُذكر.. إرادة الموت وإرادة الحياة.. كانت كل مصر من أقصاها إلى أقصاها - كما عرفت فيما بعد - تتطلع إلى بصيص نور واحد، تستمد منه إرادة الحياة.

وفجأة وبلا مقدمات يتعثر شعاع النور.. فيصرخ المذياع بنبأ عاجل لبيان الرئيس، يتحلق الناس حول المذياع فى المقاهى ويحملونه معهم فى مزارعهم ومصانعهم الجديدة، يستبدلون بطارياته المتهالكة بأخرى جديدة ويفرغون أنفسهم من كل شىء إلا من سماع البيان.

كان البيان بخصوص تنحى الرئيس عبدالناصر عن الحكم على أثر النكسة، ولم يتحمل أناس كثيرون صدمة النبأ فأغمى عليهم - على ما أذكر - وآخرون هرعوا فى العزبة المتصلة بالمدينة الصغيرة إلى دوار العمدة يعلنون عصيانهم لقبول قرار الرئيس، الذى ما سبق لهم أبدًا عصيانه.

كنت فى ذلك الوقت لم أتجاوز السبع أو الثمانى سنوات من عمرى وذلك لأن فى القرى عادة ما يسجل اسم المولود متأخرًا بيوم أو بشهر أو بسنة عن ميعاد ميلاده الحقيقى.

وكان من ضمن الموكب الذى اتجه إلى دوار العمدة خالى وأبى وأناس كثيرون أعرفهم بالاسم نظرًا لصغر القرية، أما عمى فقد اتجه مباشرة إلى المسجد الوحيد فى القرية فأخذ ينادى الناس بالتوجه إلى مركز شرطة المدينة لتسجيل أسمائهم فى كشوف الرفض هناك.

وبالفعل سار الناس إلى هناك وكنت معهم.. لكن أبى أشار على بالبقاء فى القرية لأن المشوار للمركز كبير والمدينة مزدحمة وقد أفقد فيها.. تظاهرات بالموافقة وانصرفت عائدا ولكننى استدرت وأخذت أجرى للحاق بالركب الذى كان يسير فى مقدمته شيخ الكتاب الذى درست فيه، وكان يرتدى جبته وقفطانه، وقد أثارت سرعة خطى الرجال التراب عاليًا.. كنت أخاشى أن يرانى والدى حيث أسير مع صديقى عاطف الذى تقارب سنه سنى وكان أبوه قد طلب منه عدم الذهاب مثلما طلب منى أبى.

قال لى عاطف: من عبدالناصر هذا الذى راحوا يطلبون منه البقاء، يا سيف؟

قلت له : إنه حاكم مصر..

قال وكأنه يكتشف معلومة جديدة : مصر.. وما شأننا بمصر؟ أين هى؟

قلت موضحا : إن النجع الذى تقطن فيه والمدينة المتجهين إليها هى مصر.

قال: فقط؟!

قلت: ليس ذلك فحسب بل مدن وقرى أخرى بعيدة.

قال: ولماذا يريد أن يرحل؟ (يقصد عبدالناصر)

قلت: لأنه هُزم فى الحرب ضد الأعداء.

قال بسذاجة: لأنه هُزم .. إننى هزمتُ حمادة فى «الأولى» لكنه لم يرحل، كنت أود أن أقول له إن الأبطال

حينما يُهزمون يموتون لكننى فوجئت بيد أبى تلتف حول كتفى.. لم يكن غاضبًا من حضورى وإن كان لا يريد إعطائى أية انطباع عن موقفه.

سحبنى أبى بينما أمسكت بيد عاطف وأخذنا نجرى لنلاحق خطوات أبى السريعة.

لما دخلنا المدينة كانت مزدحمة للغاية.. البعض تراصوا فى طوابير عجيبة وغير منتظمة يتجهون إلى كل مكان..

بينما كان يسلك بنا شيخ الكتاب ناحية المركز.. تركنا أبى ودخل مبنى المركز الذى كان يقف على بابه اثنان من الجنود بغير سلاح، ثم خرج أبى بعد فترة وتوالى معه خروج أهل العزبة.. وقفنا فترة، كنت أراقب ملابس الناس وأحاديثهم من حولى .. كانت كلها تدور حول عبدالناصر وعن الكارثة التى قد تحدث لو رحل عبدالناصر لأنه لا يوجد من سيخرج إسرائيل من سيناء وفلسطين غيره.. حتى تلك الاسماء لم أكن اعرف مدلولاتها ..كان البعض يرددون: إن مؤامرة ضد الزعيم قد نفذت، سحبنى أبى من يدى بعدما اتجه إلى بائع الجرائد لكنه لم يجد عنده أية صحيفة فاستمر مع الموكب فى رحلة العودة.

وبعد ثلاث سنوات تكرر نفس المشهد لكن هذه المرة كان الناس يبكون.. يبكون ويطوفون بالنعوش فى عزبة أبوالخير، وحينما سألت عن السبب قالوا إن عبدالناصر مات.

لا أدرى، لماذا بكيت مثلهم؟

صليت معهم صلاة الغائب ولما خرجت من المسجد الصغير المبنى من حطب الذرة، وبعض الأشجار اليابسة وقليل من الطوب وجدت نساء القرية يبكين ويولولن بأصواتهن العالية، اتجهت مع موكب النعش ناحية المدينة وأخذنا نطوف معهم بلا هدف، كانوا بائسين فى مشهد لم أره فى حياتى.

عدنا إلى القرية قبل غروب الشمس.. كنت جائعًا وانتظرت حتى تعد أمى الطعام.. لكنه لم يأت فى موعده حيث إننا نتميز بموعد صارم فى المأكل ونوعيته ومواعيده حسب عادة كل أهل القرية آنذاك.

فجأة سمعت طرقًا على الباب المصنوع من خشب الدوم والجميز ذى المزلاج الخشبى.

انها منصورة عمتى، سيدة عجوز بلغ عمرها نيفا وستين، قالت وهى تندفع باكية للداخل متجهة ناحية أبى الذى يجلس فوق مصطبة مصنوعة من الطين ومغطاة بطبقة من تبن الشعير والقمح:

لقد ضربنى حامد بعد كل هذه العشرة.

لم يبال أبى.. بل ابتسم وحاول إخفاء ابتسامته عنها واستطردت : لقد طلب منى أن أعد له فطيرة مشلتتة ولما قلت له كيف يحلو لك الطعام وعبدالناصر ميت؟.. فقال لى: هل عبدالناصر أغلى عندك منى، ثم قام بضربى بكفه على خدى فحلفت ألا أعد له طعامه.

هنا ورغم أحزان أبى إلا أنه لم يستطع كتمان ضحكته التى خرجت مدوية ثم انتبه لسوء تصرفه تجاه شكاية أخته فقال لها:

«بقيتوا عواجيز.. بطلوا الدلع ده.. خليتوا إيه للشباب» ثم دار حديث طويل وأدركت أننا سنبيت اليوم بلا عشاء حزنًا على عبدالناصر.

نهض أبى ممسكا بيد عمتى وهمًا ناحية الانصراف للخارج لولا أن طرق الباب.. أسرعت وفتحته وكان القادم جدى حامد الذى تخطت سنه السبعين.

احتفى به أبى وعادا ثانية للجلوس وكانت عمتى تجلس على الأرض بجوار أمى ولكن فى ركن منزو.

قال أبى: لماذا أغضبت منصورة يا أبا حامد؟

لكن حامد الذى كبر به العمر لم يسمع فاضطر أبى إلى تعلية صوته بشىء من التمتع بذلك.

أجاب جدى حامد بكلمات قليلة:

منصورة.. أختك.

قاطعه أبى بنعم، فاستطرد: مش عايزة تجيب العشا لى، طب مال موت عبدالناصر ومالى؟.. هيه بتحبه ولا إيه؟!.

هنا زعق له أبى بالقرب من أذنه قائلا: طبعا بتحبه.. كل الناس بتحب عبدالناصر.. انت بتغير منه؟

هنا ضحكت أمى وعمتى وأنا وأبى أيضًا الذى نادى على أمى أن تعد الطعام كى لا يغضب جدى حامد وقال: هاتى العشا يا سيدة.. هل جوعنا سيعيد عبدالناصر للحياة مثلا؟.

تناولنا العشاء المكون من البيض بالسمن البلدى والجبنة القريش وبعض الفول المدمس من بقايا إفطار اليوم وعشاء الأمس، ثم شربنا الشاى وبعد ذلك نهض جدى حامد وتبعته عمتى وهى تمسك بيده وكأنها تساعده على السير.

مرت أسابيع عديدة ومازالت سيرة وفاة عبدالناصر مشتعلة والحديث كان يدور بين الناس أيضًا عن الرئيس الجديد «السادات» الذى أدركت ـ حيث إننى كنت فى الصف الرابع الابتدائى ـ من خلال أحاديث الناس أنه فاقد النزعة العاطفية والاجتماعية والسياسية التى كان يتمتع بها الراحل.

□□

وعندما انتقلت إلى السنة الخامسة اختارنى الإخصائى الاجتماعى ومدرس اللغة العربية بالمدرسة لأكون مشرفًا على الإذاعة المدرسية.. وذلك حسبما قالوا أن لى صوتًا جهورا وصفوه بالعباسى ـ ولا أدرى لماذا؟ كما أننى كنت متفوقًا فى دراستى ورائدًا للفصل.

وعملت طوال العام كمنظم لكلمات الصباح وأملى على زملائى ما ينبغى أن يقدموه من أعمال فى اليوم التالى فى الإذاعة وأقوم بتحية العلم..وهو الأمر الذى أتاح لى فرصة تكوين علاقات صداقة كثيرة بين زملائى من قريتى وقرى أخرى.. مما قرب إلىّ مدرسيى بشكل أكبر.

وفى السنة الدراسية التالية اختارونى رئيسًا لاتحاد الطلاب وحصلت على جائزة فى صحف الحائط على مستوى

المحافظة وفى نهاية العام أخبرونى بنجاحى بتفوق وأننى سأنقل للمدرسة الإعدادية.

وفى المدرسة الإعدادية الواقعة فى نفس المدينة والملاصقة للمدرسة الابتدائية كنت أشعر بالهيبة لولا أننى رأيت الكثير من أصدقائى القدامى وإن لم يكن كلهم.. ومع مضى الوقت علمت من صديق أن زميلا هادئا كان معى فى الابتدائية من قرية أخرى قد توفى.. شعرت بالرعب من أن الموت قد يحصد تلك الأجساد الصغيرة وهو الأمر الذى أرقنى كثيرًا.. وفى نفس الأسبوع تقريبا علمت أن إسرائيل قتلت بالقنابل ٧٠ تلميذًا فى مدرسة منذ عامين تقريبًا.. وعرفت أن إسرائيل دولة كبيرة أقيمت على القتل وتشريد الناس من ديارهم.. لذلك كنت أكرهها بقوة شديدة وأحببت عبدالناصر بقوة شديدة أيضًا لأنه كان يكرهها مثلى.

لم أستطع الحصول على منصب إدارة الإذاعة المدرسية لأننى وجه جديد للتلاميذ والمدرسين لكن ذلك لا يمنع من العمل فى الإذاعة.

وبالفعل كنت أقدم كل يوم عملاً مختلفًا شعرًا، أو خطبة، أو حكمة، وكانت كلها تصب فى مهاجمة إسرائيل التى أعملت ذهنى كله من أجل قراءة كل شىء عنها.. كل شىء.

□□

ومر العام الأول والثانى والثالث وكنت فيه مديرًا للإذاعة.. كنت أكتب شعرًا غزيرا قال عنه مدرسو اللغة

العربية إنه ضعيف بينما أثار إعجاب التلاميذ وباقى المدرسين.

ثم حدثت حرب أكتوبر.. وقتها قاموا بإعطائنا إجازة قصيرة قد تكون أسبوعًا أو اثنين.. قضيتها كلها فى البلد.. كان الناس سعداء رغم أن فى قريتى أربعة مآتم لشهداء الحرب قائمة.

رأيت دموع الألم على وجوه أسر الشهداء وفى نفس الوقت شاهدت تقاطيع القوة فى نسيج جباههم.

ولا أستطيع تخيل تلك الجرأة التى أصابتنى عندما كنت جالسًا أستمع لخطيب الجامع فى أثناء صلاة الجمعة، حيث أخذت أبكى بحرقة شديدة مع كلمات الخطيب عن الحرب والشهادة فى سبيل الله والوطن وبيت المقدس..

أثار صوت بكائى كل من حولى فشاركنى بعضهم البكاء ، الآخرون تماملوا على أنفسهم.

وحينما انتهى الخطيب من الصلاة همّ الناس بالخروج لولا أن رفعت صوتى طالبًا إقامة صلاة الغائب على الشهداء، الرجال الكبار التفتوا إلىّ وعادوا ثانية وكأنهم تذكروا شيئًا نسوه وأيدوا دعوتى وبالفعل أقيمت الصلاة.. كنت أيضا كما حدث فى صلاة الجمعة أقف خلف الصفوف فى صلاة الغائب مع من هم فى سنى.. وكان يقف بجوارى مباشرة صديقى عاطف الذى ما إن خرجنا من باب الجامع حتى جعل يقول: لم تكن صغيرًا يا سيف مثلى.. بل رأيتك اليوم كبيرًا مثلهم.

قلت : مثل من؟

قال: مثل الشيوخ وأهل القرية الكبار الذين كانوا فى الجامع. كانوا جميعًا يرمقونك بنظرات الإعجاب.

أسرنى هذا الحديث وودت أن أسأل كل فرد فى الجامع عن رأيه فيما فعلت لدرجة أننى نظرت للخلف بالفعل لولا أبى الذى لمحته قادمًا نحوى فى طريقه للمنزل.

مضت عدةأيام قضيتها فى الزراعة مع أبى وما زال حديث النصر يلقى بظلاله الكثيفة على القرية التى كان يخيم عليها الحزن فى مشهد متناقض.

قال لى أحد أبناء القرية فى أثناء عودتنا من الحقل إنه سمع من والده أنه بعد سنوات سيشترى جرارا لحرث أرضه ويمكن تأجيره لحراثة أرض الجيران.

فقلت ـ أشاركه أحلامه: وهل تنوى أن تكون سائقًا للجرار؟

قال: لا .. لم أقرر بعد.

ثم عاد مغتبطًا يقول : سوف أكون سائقًا ، يجب أن أتعلم القيادة، سوف أحمل عليه حزم البرسيم للماشية والحطب الذى نستخدمه للخبيز بدلا من الحمار الجربان الذى نملكه، سوف أطير بالجرار فى الهواء ولن أفارقه أبدًا.

قلت ملاحظًا: ولكن لماذا بعد أعوام؟

قال: أخبرنى أبى أن السلام الذى يكرر الحديث عنه الرئيس السادات سيجلب الخير للبلاد، وسوف يحقق كل

مواطن أمنيته.. هذا ما سمعه أبى من الرئيس وكذلك سوف يخرج أخى من الجيش.

وأضاف: كما أخبرنى أبى أنه سمع الرئيس من مذياع القهوة يقول إنه سيرفع من مستوى المعيشة لدى الفلاحين.. حتى أن أحد الأشخاص الموجودين بالقهوة ممن يستمعون لكلام الرئيس أعلن تنازله عن دين لشخص آخر مدين به وقال: ليس بى حاجة إلى هذه النقود بعد الآن ،وقد تبعه أناس كثيرون.

كان الفتى يتحدث كثيرًا لدرجة أننى اعتقدت أنه لن يكف عن نقل ما سمعه أبو إلى أن ودعته فى نهاية الطريق متمنيًا له تحقيق أمنياته.

نمت مبكرًا حيث كانت فى اليوم التالى سوف تستأنف الدراسة ثانية وهناك شاهدت الجميع يصافحون بعضهم، الطلبة، المدرسون، السعاة.. كانت الغبطة تعم الجميع، وبعد أن انتهينا من تقديم الإذاعة المدرسية وكانت كلها عن أكتوبر حيث بدأت بكلمة لناظر المدرسة ثم قصيدة شعر كنت قد ألفتها ومعلومات سريعة قدمها زميل لى، اجتمعنا فى فترة الفسحة تلاميذ وتلميذات كل يتحدث عما حدث فى بيته وفى قريته أو ما شاهده أو سمعه من انفعالات الناس.

كانت كلها روايات محزنة.. حيث استشهد أخ لزميلة من زميلات الفصل المتفوقات تدعى «ريم» واستشهد أب لزميل آخر لم يحضر والعديد من أقارب الحاضرين.

لذا اقترحت أن تشكل لجنة مدرسية من الطلاب لزيارة الزملاء والزميلات الذين استشهد إخوانهم أو آباؤهم على أن يرأس اللجنة ناظر المدرسة.

وبالفعل توجهت بالاقتراح إلى مكتب الناظر الذى ابتسم قليلاً ثم عاد لجديته من على مكتبه وقال: اذهب.. سوف أبحث الأمر.

ولم أكد أخطو خطوات خارج المكتب حتى نادانى قائلا: يا سيف.. ما اسمك؟ أردت أن أضحك لولا أن قال: ما اسمك الثلاثى طبعًا؟

قلت: سيف منصور على.

قال وقد وقف من مقعده: حسنًا يا سيف.. فكرة جيدة.. ولكن لى انشغالات كثيرة وعدد الشهداء كبير للأسف.

أردت أن أوضح له أننا سنواسى الزملاء الذين فقدوا ذويهم فقط لكنه قال دون توقف:

سوف تشكل أنت هذه اللجنة وبرئاستك من التلاميذ وسوف تحمل خطاب عزاء من المدرسة وعلى حسابها..

وقال بعد فترة صمت محملقا فىّ: الآن انصرف.

خرجت مغتبطًا وأزمعت أن يكون عاطف مساعدا لى وأن تشمل اللجنة رؤساء الفصول والمندوبين الثقافيين عن الفصول كلها.

وبالفعل تشكلت اللجنة وكنا نزور يوميًا أسرة شهيد أو اثنتين إذا كانتا مراسم عزائهم قريبة من بعضهما حتى

دون أن يكون لأحدهما زملاء بالمدرسة وكنا نرتدى ملابس المدرسة وفى ذراع كل منا معلقة شارة الشرطة المدرسية الحمراء.

وكنا ندخل قاعة العزاء بانتظام، حيث يبدأ الطابور بى كمنظم للجنة وكرئيس للإذاعة المدرسية واقتاد الطلاب ثم بالمندوبين حسب ترتيب الفصول.

ورغم صغر سننا كان الناس يقفون لنا باحترام شديد فى أثناء الدخول والخروج.

ومر العام بين مزيد من الضحك والدراسة حتى جاءت الإجازة الكبرى وذاع اسمى على ما علمت فيما بعد بين الأهالى والتلاميذ بسبب نشاطاتى الإذاعية وبسبب نشاط اللجنة الخاصة بزيارة الشهداء حيث كانوا يحبوننى، ولكن تلك الشهرة سببت لى ألمًا شديدًا فيما بعد.

□□

ولما أعلنت النتيجة فى آخر العام .. أقنعت صديقى عاطف بالالتحاق معى بالثانوية العامة، حيث يمكننا ذلك من العيش معًا فى المدينة رغم اعتراض عاطف بسبب نفقات التعليم الثانوى وبسبب ظروف تمر بها اسرته وإن كانت مؤقتة .

وفى الواقع لم تكن تلك الدراسة تناسبنى اقتصاديًا وذلك لأن دخل والدى من الفدان الذى يملكه لا يكاد يكفينا علاوة على نصيب عمتى منه وإن كانت فى غير حاجة له

ولكن فى المقابل كان أبى مستعدًا لبيعه للإنفاق على تعليمى لأنه كان دائمًا يريدنى شيئا عظيمًا، عظيمًا جدًا ، مثل الفريق فوزى أو الشاذلى فى الجيش.

كانت المدرسة الثانوية تقع على بعد عشرين كيلو مترا من القرية شمالا، أى على بعد مدينة أخرى حسب الترتيب الإدارى للمدن آنذاك وهو الأمر الذى يستلزم إقامة دائمة هناك.

وقد ذهبت قبل بدء الدراسة بيومين حتى نجد مسكنا وكان معى عاطف حيث استقللنا سيارة نقل مكشوفة بالنفر من الطريق السريع الواقع بالقرب من قريتنا غرب النيل.. وسارت السيارة عبر الطريق الزراعى، حيث الفلاحون يجرّون مواشيهم نحو مزارعهم وسط زعيق السواقى وجداول الماء التى تتوسطها نباتات ورد النيل فتعوقها عن مواصلة سيرها المرهق نحو الشمال.

انتهى الطريق المرصوف ووقفت السيارة فهبط جميع الركاب، إلتفتنا يمنة ويسرة بحثا عن الطريق إلى المدينة لولا أن لمحنا أحد الركاب ونحن فى حيرة من أمرنا فقال لنا متسائلا:هل تودون الذهاب نحو المدينة؟.

أشرنا له بالموافقة قال بثقة : إذن .. اتبعونى.

سرنا معه طريقا غير معبد وكنا نلتزم الصمت.. حيث الجو حار جدًا والشمس ملتهبة فى كبد السماء.

وكان كل منا مشغولا بالنظر أسفل رجليه حتى لا يقع فى حفرة من الحفر الكثيرة التى تملأ نهر الطريق أو أن يرتطم بحجر من الأحجار الجيرية الكثيرة.

قال الرجل وكان يسبقنا وقد التفت إلينا:هل أنتم طلبة؟

أجبناه بنعم فقال: إن ابنى حسن فى المدرسة الثانوية قد يتخرج فيها هذا العام هل أنتما ذاهبان إلى تلك المدرسة؟

قلت: نعم .. أتينا اليوم للبحث عن مسكن.. وغدًا سنحضر أغراضنا معنا إن وجدناه.

فقال: لقد تعبت كثيرا منذ عامين حينما جئت مع حسن للبحث له عن مسكن، ولكن قد يستطيع حسن إيجاده لكما؟

صمت ثم قال: لقد تأخرتم قليلاً.

وصلنا إلى حافة النيل وهناك علمت أننا سنستقل معدية لتقلنا للجانب الآخر وأدركت أن الأحجار التى كانت تقابلنا هى أحجار تناثرت من سيارات النقل العملاقة التى كانت تحملها لبناء مصدات مياه لمنع نحر النيل.

استليت «السَبَتْ» وهو إناء أو سلة مصنوعة من نبات الغاب والجريد من يد الرجل، حيث سبقنا فى الهبوط للمركب ثم ركبنا خلفه وكان يبدو سمينًا جدًا بسبب دخول هواء البحر جلبابه مما جعله يشبه البالونة فشعرت بالرغبة فى الضحك.

لا أدرى لماذا كنت قلقًا وكان عاطف كذلك، هل لأننا لأول مرة نخرج بمفردنا إلى مكان غير الغربة؟

ووصلنا المدينة وسار معنا الرجل وسط شوارع المدينة المتشعبة إلى أن وجدنا بناء ضخما قال عنه الرجل إنه المدرسة التى نقصدها وكانت محاطة بسور حديدى مغبر

مكفهر يوحى بعراقته وخلفه مجموعة متفرقة من نباتات الزينة التى تتوسط فناء المدرسة .

واستدرنا قليلا فى شارع يوازى سور المدرسة ومنه دخلنا شارعا آخر حتى وجدنا مبنى مكونا من ثلاثة طوابق صعدنا السلم وفى الدور الأخير طرق الرجل على الباب ففتح شخص فى عمرنا تقريبا يرتدى نظارة سميكة سرعان ما صاح مرحبا ..

ناوله أبوه السَبَتْ وتقدم ثم قال انه معه ضيوف ونادى علينا بالدخول وكنا مازلنا نقف بالباب.

استقبلنا حسن بحفاوة بالغة ثم شرح له أبوه حاجتنا وكان حسن شخصا مثيرا للاطمئنان والثقة حتى أننا شعرنا بأن والده يكن له احتراما أكثر من عاطفة الأبوة.

أكد حسن أننا سنقيم معه وصديقه حمدى ما لم يستطع تدبير سكن لنا.

قلت اننا سننصرف لكن حسن رفض نظرا لغروب الشمس وقال إنه يمكننا نقل أغراضنا بعد غد.

وتناولنا الطعام معهم مما أحضره الرجل فى السبت وكان زميلنا حمدى لم يحضر بعد من قريته.. وقد بات حسن ووالده على سرير واحد بينما أنا على سرير حمدى وعاطف على السرير الثالث.

كنا قد نمنا ومع بداية انتهاء الليل استيقظت على جلبة واكتشفت أن حسن وأباه نهضا لصلاة الفجر وهو الأمر الذى ذكرنى بوالدتى ووالدى.

وفى الصباح كان الرجل قد ودعنا وأردنا الانصراف بعده سويا لولا أن حسن قال لنا إنه ينبغى أن يبقى أحدكما لمتابعة الأمر فى المدرسة والثانى يذهب لاحضار الأغراض من العزبة، وفعلا ذهب عاطف وبقيت أنا وقد أتممت على الأمر بأفضل شكل فى المدرسة وكان يرافقنى حسن ، ويبدو ان الامر قد حسم نحو بقائنا .

شخصية حسن جديرة بالاحترام رغم أنه صغير السن إلا أن له هيبة آخذة وهو ما لاحظته حتى فى المدرسة وقد لاحظت فيه أنه متدين بعض الشىء وهو الأمر الذى اقلقنى حيث ينبغى أن أساير فى الحرص على الصلاة حتى لا يتغير رأيه فىّ.

وكان حسن فى القسم العلمى كثير الحديث عن الهندسة وعن المستقبل الجميل الذى ينتظرنا رغم أنه لا يتحدث فى السياسة لدرجة أننى وددت أن اسأله عن علاقة الهندسة بالدين بالسياسة، فاكتشفت أنه سؤال غبى بليد!

واكتشفت بعد ذلك أن حسن لا يثير اهتمامه التزام من حوله بتلك الأمور وإن كان هو يحرص عليها.

أما حمدى فهو ايضا فى الصف الثالث ولكنه فى القسم الأدبى وكان مهتما شيئا ما بالسياسة وخاصة الخارجى منها.. بحيث يهب جل مصروفه البسيط الذى يناله من والده لشراء الجرائد وقراءة الأخبار العالمية حتى لو كانت تخص بلدانا فى أقصى المحيط وهو الأمر الذى كان ينتقده فيه حسن كثيرا.

□□

ومر العام سريعا ..كنا كل أسبوع نذهب لقرانا فى يوم الجمعة أى نذهب عصر الخميس ونحضر عصر الجمعة واستطعنا الاقتراب من بعض كثيرا وكنا نجد متعة فى الاستماع للتجارب التى مر بها احدنا فى موقع ما.

كما أن وجود حمدى وحسن معنا قد أزال الخوف من أمور كثيرة يمكن أن تقلقنا.

وكان حمدى برغم اطلاعاته الثقافية الواسعة هاويا لمغازلة البنات فى المدرسة واحيانا اغضابهن بعنفوانه وكان يساعده فى ذلك بنيانه القوى ووسامته.. وبالطبع كان لا يعرف حسن ذلك.

ولا أنكر أن حسن قد أفادنى كثيرا فى الصبر والجلد والوقار بحيث أصبحت اقتدى به وأن حمدى قد ألقىّ على بصبغته الثقافية وشرح لى بدايات الفهم الصحيح لأمور الثقافة والجغرافيا، حيث عرفت منه قصص الأدباء، كرم واشتراكية تولستوى، ونرجسية جوتة، وكوميديا موليير ومآسى راسين.. ورأسمال ماركس.. لقد كان يقرأ كثيرا فى الكتب الخارجية أكثر من قراءته فى كتب مدرسته وكان يقول دائما: ما شأنى بالمجموع إذا كانت نهايتى كلية الحقوق؟

وكانت كلية الحقوق من الكليات ذات المجموع المنخفض فى تلك الأثناء للقبول بها كما عرفت ان حمدي اسوأ حالا من حسن ، وإن كان الاثنان فقيرين مثلى ومثل عاطف.

ولكن حمدى كان يخفى وراءه اشتراكيا كبيرا وقوميا ايضا فلا أنسى مدى حزنه حينما قرأ فى الجرائد أن السادات أعلن قبول وقف اطلاق النار.

صرخ فى الشقة قائلا: إنها الخيانة.. انه قبل الهدنة سوف يسحق الاسرائيليون سوريا لأن كل قواتها المنشطرة على جبهتى مصر وسوريا، سوف تتوحد لدك دمشق.

وكذلك كنت اتذكره دائما وهو يردد أن السادات يمضى بالبلاد نحو الاقطاع، ولا نريد نصرا يلقى بالفقراء فى سلة المهملات.

وكان دائما ينكر أى تعاون مع الأمريكان، ويقول إننا نتعاون مع من نحاربهم!!

ولا شك أنه كان ذا حس سياسى راق، حيث اثبتت لى الأيام أننا نمضى نحو الاقطاع ونحو الفقر ذاته وإن كان الشارع آنذاك مخدرا بأمنيات الفجر الذى انبلج من كبد الليل رغم أنه كان مازال يشعر بالهوة السحيقة بين قائد التحرير الذى عشقه وقائد السلام الذى بدأ يتحدث إعلامه عنه.

وفى نهاية العام تعانقنا عناقا حارا وتبادلنا العناوين خشية أن تفرقنا الأيام ولانرى بعضنا.

□□

وفى أثناء الاجازة الصيفية الكبيرة قضيت وقتا ممتعا فى القرية وسمعت أن الحكومة بصدد ادخال التيار الكهربائى

لها، وشهدت بشغف كما شاهد أهالى القرية مهندسى الكهرباء يقيسون المسافات ويضعون علامات هنا وهناك ثم جاءت سيارة أخرى بعد عدة أيام تلقى فى الشارع بأعمدة الكهرباء وبعدها عمال ينصبون الأعمدة ويمدون بينها الأسلاك وسط بهجة الأطفال وتهليلهم وانشاد الأغانى لهم بينما الكبار يقومون بإعداد الشاى للمهندسين والعمال الذين معهم كلما كانوا يؤدون عملا بالقرب من منازلهم ولا أنسى أيضا كم كانت السعادة حينما تلألأ أول مصباح بالكهرباء فى البلد وكيف أن الناس يتحدثون عن السر الخفى للكهرباء الذى يجعلها تفعل كل شىء رغم حذرهم منها حسب تحذيرات المهندسين.

ولأننى تعاملت مع الكهرباء فى المدن كانوا يستعلمون منى عن أى شىء يودون معرفته مثل تركيب لمبات جديدة أو أى نصائح أخرى، ولقد سألنى ذات يوم أحد الفلاحين عن كيفية ما قاله المهندسون من أن الكهرباء (تشفط) الانسان لو لمسها؟ وأضاف: هل للأسلاك تلك تجاويف داخلية يسير بها الإنسان؟ وهل تتسع؟

ورغم سذاجة السؤال إلا أننى شرحت له المقصود من كلمة «تشفط تلك» وعلى عكس ما توقعت لخص كلامى فى عبارة قالها وهى: يعنى تيبسه؟!

وانتهت الاجازة الصيفية وكم كانت سعيدة ولكن ما عكر صفوها المرض الذى أصاب والدى فى نهايتها ولكن سرعان ما شفى منه.

وابتدأ العام الدراسي الجديد وهناك سمعت أن حمدى دخل كلية الحقوق وحسن كلية الهندسة وأنه الثانى على المدرسة.

وفى السكن جاء إلينا زميل جديد اسمه مدحت رشدى كان دائم المدح فى الرئيس ونظام الحكم وكان كل ما يعنيه هو أن يعيش لليوم الثانى وبأى شكل.

وبعد ثلاثة أسابيع من بدء الدراسة جاء إلينا زميل رابع اسمه أحمد عامر لم يكن يهمه شيء سوى البنات، البنات وفقط.. وكان يعتنى كثيرا بملبسه واناقته، ويقف ساعة كل صباح فى تسريح شعره أمام المرآة.. مرة للأمام ومرة للخلف واخيرة على الجانبين وعموما لم يكن سيئا بل كان دائم الهزار ويتعمد اصطياد القفشات.

وبعد شهر حدث ما جعلنى أشعر بالخجل الشديد من نفسى حيث إننى هذه الجمعة لم أذهب للبلد، ونهضت فى العاشرة صباحا وبعد تناولنا الافطار وتغيير ملابسى دعوت مدحت الذى بقى للذهاب معى لصلاة الجمعة ولكنه فاجأنى بشيء لم اتوقعه قال:

أنا مسيحى؟!

قالها وكأنه خجل من عدم اشعارى بهذا الأمر طوال المدة السابقة وإن كنت استطعت التهرب من الموقف بقولى مبتسما:

لا بأس.. سننهضك يوم الأحد لأداء الصلاة.

والغريب أن مدحت كان يتحدث معنا فى أى شيء حتى ولو كان فى الإسلام ويبدو صعبا اكتشاف تلك المعلومة.

وكان أحمد عامر تخصص أدبى مثل التخصص الذى اخترته حيث إننى اضيق ذرعا بأبسط مسألة حسابية بينما كان عاطف ومدحت فى القسم العلمى وكان عاطف محبا للأحياء بينما مدحت للرياضيات.

وكان يستعين عاطف ومدحت وايضا احمد بى فى أى مسألة خاصة بالأدب، نظرا لهوايتى للشعر التى لمسوها فىّ، وشجعونى على تقديمها فى الاذاعة المدرسية وهى المرة الأولى التى أعود فيها للاذاعة المدرسية فى مرحلة الثانوى عقب احجامى عنها.

وكما تعودت أصبحت خلال أشهر وجهًا معتادا فى الاذاعة وأصبحت اشعارى ـ القليل منها ـ محببة لدى الطلاب وإن كان مثار النقد لها أوسع نظرا لنمو العقول فى تلك المرحلة.

وقد انتخبت ايضا رائدا للفصل وإن كان يعوزنى شيء من الاهتمام بمظهرى حسب ما استشفيته مقارنة بأقرانى .

□□

شهد العام الثانى من الدراسة أول قصة حب اتعرض لها فى حياتى، ولا أدرى حتى الآن هل كان حبا أم اعجابا؟.. لكنه فى كل حال كان شعورا جميلا أن يخفق قلب المرء متيما بحب انثى حبا رومانتيكيا.

كانت المصادفة البحتة هى سبب اكتشافى لهذا الحب وإننى اتذكر مدى امتنانى لشخص غريب الأطوار دفعته

غرابته للتحرش بي ومحاولة افتعال مشكلة معي في أثناء الفسحة، كان هذا الشخص في الصف الثاني ايضا لكنه في فصل آخر ولا اذكر اسمه الآن لكنه نجح في افتعال أزمة وكاد يسدد لي ضربات قوية في وجهي مستغلا نموه البدني المتسابق لولا تكاثر الزملاء حولي واعاقتهم له وخاصة رفيق عمري عاطف.. التفت حولي فتطلعت إلى تلك الفتاة ترمقني بنظرة اشفاق ولكنني ظننتها نظرة حب وربما كانت كذلك، وكانت تلك النظرة الثاقبة ايذانا بالحب الجديد خاصة بعدما قصّ لي عاطف أنها اخبرته في الجانب الآخر من المدرسة بما يحدث لي فجاء مهرولا ومعه بعض الزملاء.

كانت ليلى ذات الجمال الريفي معنية بماهية الشخصية اكثر من عنايتها بالمظهر الخارجي لها ولا احسبني مبالغا في مدح نفسي آنذاك.

أما عن كيف عرفت هي شخصيتي فالفضل يرجع للاذاعة المدرسية.

وكان حبنا الصغير لا يتعدى أكثر من نظرات متبادلة ولا مانع من اكتب لها قصيدة شعر وألقي بها في درجها فترد عليها بقصيدة أخرى تضعها في درجي أو تلقيها أمامي في الطريق والتقطها.

ولقد كان هذا الحب رغم براءته وتوجهه المكبوت بمثابة أداة تبريد وتخفيف من المعاناة في غربتي وتهدئة انفعالاتي غير المحسوبة عادة في مثل هذه السن المبكرة فأمضيت العام الثاني كله في خيال وولع لولا خبرين سيئين ازعجاني حيث

ان عاطف الذي عاد من الغربة في أحد الأسابيع أخبرني أن صحة والدي على غير ما يرام وطلب مني ضرورة الذهاب للغربة لأن والدتي أوصته بذلك.

وكان الخبر السيىء الثاني الذي سمعته بعد ذلك بأسابيع أن أمن الدولة ألقت القبض على حمدي ـ رفيق العام الماضي ـ في كليته بتهمة الشيوعية!!

حقا إن للحب غشاء رديا يكسي الأشياء المقفرة حلة بهاء وروعة.

ورغم قصر مدة هذا الحب إلا أنه كان الأصدق في مشاعري.. وأنا لا أنكر حاجتي في هذه السن لمثل هذه العاطفة التي تنمي المشاعر الانسانية ولا أنكر أن القدر خدمني كثيرا عندما ذهبت بيسر كما جاءت إلى قلبي ايضا حتى يتسنى الانكفاء على عملي وأشكره على أنه خفف من قدر آلامي آنذاك.

لقد تزوجت من ابن عمها ـ وإن كانت مكرهة عليه ـ وقد طلب منها عدم اكمال تعليمها والاكتفاء بما وصلت إليه.

وكم كنت محرجا عندما رأيتها بعد ذلك بعشر سنوات مع زوجها واطفالها الصغار.. كان حرجي من التفكير الجميل الذي كنت أفكر به ويفكر به ابناء جيلي في هذا الزمن الجميل.. والعمر الجميل لكني لما لمحت سعادتها الأسرية، أدركت حرجها ايضا.

وما لبث أن ذهب هذا الحب من قلبى ولا أقول تحول لنقيضه بل أصبح علامة لصغر عقلى وإن كنت حزنت كثيرا عليه.

وقبيل أيام الامتحانات بيومين مرض والدى مرضا شديدا وبدأت نوبات المرض تأخذ شكلا مستمرا مستفحلا ولم يعلمونى بذلك حتى انتهت الامتحانات.

وقد صدمت بمشهده ولا حول ولا قوة له بالبيت راقدا فوق اريكته لا يستطيع الحراك.. حيث تلقتنى على عتبات المنزل والدتى بدموع غزيرة ـ لم أر مثلها من قبل ـ تنساب من عيونها.. ودونما أن تتحدث أومأت لى ناحية «الدكة» التى يرقد عليها.. انتبه فحاول أن يدير رقبته ليرانى ولكنه لم يستطع فلا حركة ولا كلام.. بينما كانت عمتى منصورة وزوجها جالسين بالقرب منه على الأرض وكانت كذلك سيدات كثيرات من أهل الشارع وبعض الجيران.

كان يحملق فى السماء ولا أظنه يراها وكأنه يغيب عن العالم بسرحانه.

ولا أنسى شحوب وجهه الذى جعل الدموع تسيل من مقلتى.

اقتربت نحوه، قبلته، حضنته لمدة طويلة إلى أن شدنى من لدى أحد الاشخاص للخلف قليلا ولا أذكر من هو وأظنه شيخ الجامع الذى قال:أرادك أن تكون رجلا بعده.

التفتت إليه النسوة وقد أدركن الخبر إلا أنه قال موضحا:كل نفس ذائقة الموت.. البقاء لله.

لم أدر بشىء بعد ذلك سوى وأنا ملقى على دكة أخرى وقد تم تشييع الجثة وكانت أصوات الصراخ تدوى شديدة.

توفى أبى على سن صغيرة نسبيا.. وكان علىّ أن أصبح رجلا للمنزل وفى نفس الوقت أكمل دراستى.

لم يفارقنى عاطف كثيرا بل كان ينام معى فى حجرتى وكان يحضر لى طعامى ويجبرنى بتوددة على تناوله.

قلت فى نفسى: لا أدرى إننى حسن الحظ.. حيث ساق لى ربى شخصا مثل عاطف ليكون على اخلاصه رفيق عمرى.

فى ليلة بينما كنا قد فرغنا من استقبال المعزين وخلدنا للنوم همس عاطف فى أذنى: يمكنك أن تؤجر قطعة الأرض التى تزرعها فتدر عليكم ربحا مضمونا وتجعلك تتفرغ لدراستك.

واستمر قائلا: لا يوجد حل آخر لك..

كان كلامه مقنعا وهززت رأسى له بالموافقة.

وخلال تلك الاجازة الصيفية شعرت بأننى اقترب كثيرا من أمى.. تلك المسكينة التى رحل عنها رفيق عمرها وتركها بمفردها فى ذلك البيت الذى أصبح موحشا أصم ورحل عنها ابنها ليمارس طقسا من طقوس الحياة الحديثة وهو البحث عن العلم.

انها كل شيء فى حياتي ، ولها اشكو همومى وافصح لها عما لا اقوله لغيرها من البشر .

وكذلك كانت تقترب منى.. ليست تقترب منى فهى لم تكن بعيدة عنى ولكننى أصبحت الانسان الوحيد الذى يربطها بالوجود كله ولذا شعرت بأنها تود ألا تفارقنى وكأنها تحافظ علىّ من خطر داهم.

وقد كان ذلك الخوف واضحا جليا عليها فى أثناء توديعها لى بعد عودة المدارس رأيت الدموع فى عينيها وهو الأمر الذى لم يبد عليها فى أثناء حياة والدى لشعورها بالقوة معه وتأمينه لمستقبلى أنا وحياتى ايضا، وأنها قد أخذت منه الوصايا بمسئوليتها عن تربيتى دون مقدمات.

ولا أنسى منظرها البائس وهى معلقة بطرف الباب ترقب انصرافى حتى غبت عن رؤيتها.

وكان العام الدراسى الثالث عاما حاسما ومرهقا.. تعمدت أن اتفرغ للدراسة وكذلك فعل عاطف واعضاء الشقة.. بحيث كانت الشقة تدب بالعيون المتيقظة ليل نهار وكنا نتبادل فيما بيننا أى معلومات أو مذكرات مفيدة.

وكنت حريصا على زيارة والدتى كل أسبوع أو أسبوعين على أكثر تقدير حيث استقرت عندها عمتى وزوجها ليؤنسا وحدتها وهو الأمر الذى اشعرنى شيئا ما بالاطمئنان عليها فى هذا البيت الواسع.

ومن الجانب الآخر بدأت تزيد ساعات الاستذكار اليومى من ٥ ساعات إلى ثمانى ساعات واحيانا عشر ساعات.. كنا

خلالها وكأننا فى صدد مناقشة رسالة دكتوراه إلى إن جاء الامتحان فاكتشفنا أنه أمر سهل بكثير.

ولم أصدق نفسى حينما أعلنت النتائج عبر المذياع وكنت أنا وعاطف وأحمد ومدحت من الناجحين.

وقد ازدادت دهشتى أكثر حينما أخبرنى عاطف الذى ذهب لاحضار النتيجة من المدرسة بأننى كنت الأول على المدرسة فى القسم الأدبى وأن مدحت كان الأول فى العلمى.

لم أشأ أن أقوم بتوزيع شربات على الناس نظرا لوفاة والدى منذ تسعة أشهر تقريبا.. لكن والدتى أصرت على ذلك.

لم أكن أشعر مطلقا بأن نجاحى كان متميزا كما يقولون وقلت ربما كان الامتحان سهلا!!

□□

وقد قررت الالتحاق بكلية الحقوق، كلية مصطفى كامل وإن كانت تسمى مدرسة الحقوق قديما، وهو الأمر الذى أثار الدهشة فى نفوس زملائى العارفين بماهية الكليات أما أهل بلدتى ماعدا عاطف طبعا فهم لا يعرفون معنى كلية وإن كانوا يرونها شيئا عظيما.. فهم فلاحون بسطاء حتى العمدة نفسه.

كان اقتناعى بكلية الحقوق متزايدا فهى كلية العدل التى تخلق الانسان العادل المدافع عن البسطاء وعن حقوقهم وأمانيهم أما عاطف فقد انتسب لكلية العلوم فى نفس الجامعة.

ومع بداية تلك المرحلة بل فى وسطها حدث شىء مريب.

لقد انتقلت أنا وعاطف لمدينة بعيدة جدا حتى يتسنى لنا دخول الكلية وسكنا فى المدينة الجامعية.. وبدت الأمور تبدو مستقرة وتأخذ مسارها نحو الرتابة شيئا فشيئا.. وإن كانت مصروفاتنا الدراسية تبدو ضئيلة نظرا لاحتياجاتنا.. فأسعار المذكرات مرتفعة.. بل ان شراء كتاب واحد كان يستنزف كل مصروفى فى أسبوع أو أثنين حينما كنت طالبا فى الثانوية رغم أننى زيادة مصروفى الاسبوعى للضعف فى الجامعة وكنت اقضى شهرا أو اثنين دون زيارة البلد ضغطا للنفقات وراحة من عناء السفر الطويل.

فى شهر يناير وتقريبا على مدار يومى ١٨ و١٩ من يناير رأيت المظاهرات تجتاح الشوارع احتجاجا على قرار الرئيس بمضاعفة أسعار الخبز.

كانت الجماهير فى الشوارع مثل أسراب النمل فى مواجهة القنابل المسيلة للدموع وهراوات العسكر الثقيلة وطلقاتهم ايضا.

كنت اهتف معهم.. وكان لى صوت جهورى يستطيع من ينص له أن يميزه.. كنا نقذف العسكر بالطوب والحجارة وكانوا يطلقون علينا الطلقات المطاطية.

أرادوا اغلاق باب الجامعة منعا لخروج مظاهرة تساند الجماهير لكن دفعات الطلبة الثائرين كانت أقوى.

فبدا الباب وكأنه يتكسر وهنا أعطى رئيس الحرس الجامعى أوامره لقواته بالابتعاد عن الباب .. ادركنا انهم

ينوون إلقاء قنبلة مسيلة للدموع .. لكننا اندفعنا نحوهم بقوة وقد انفتح الباب على مصراعيه.

لكنهم واجهونا بالطلقات الحية .. قتل خمسة طلاب وأصيب آخرون وكادت إحدى الطلقات تشطر رأسى لولا عامود الكهرباء .

ولما لمحنا العسكر قادمين نحوهم هرب رئيس الحرس وتقهقروا مذعورين.

وقدر لنا ان نلتقى بجموع الجماهير الثائرة وقد اختبأ العسكر فى ثكناتهم المعدة لهم فى الشوارع بينما الجماهير قامت بتحطيم زجاج سيارات الشرطة التى قتلت منهم الكثير.

ولقد شاهدت بنفسى حيلة يتغلب الجمهور بها على قنابل الغاز حيث كانوا يقطعون حبات البصل لتفسد رائحته مفعول الغاز وفى تلاحم عجيب شاهدت النسوة يلقين من الشبابيك والبالكونات كل ما فى مطابخهن من البصل على الجموع الثائرة.

شعرت بمدى غبن النظام الذى يواجه مواطنيه بالرصاص والقنابل وخاصة عندما رأيت الدبابات وكنت أول مرة أراها حقيقة بعد حكايات العائدين من حرب أكتوبر فى الشارع تهدد بتدمير المدينة كلها.

قلت والدم يغلى فى عروقى ونحن نفر امام الدبابات لشخص شاءت آلية الفرار ان يسير معى فى حارة ضيقة :لقد قتلوا طلبة الجامعة .. الجبناء.

قال وهو يحثني على السير مسرعا:وسوف يقتلوننا إن تمكنوا منا أيضا.

ادركت اننا فى خطر وخاصة ان الشرطة على مشارف الحارة ولكن فجأة خرجت سيدة من أحد أبواب العمارات وأمسكت بثوبى وشدتنى للداخل وتبعنى رفيقى.

قالت السيدة العجوز : اختبئا هنا حتى تهدأ العاصفة فلو أمسكوا بكما لن تريا الشمس ثانية .

وفى شقتها أكرمتنا باطعامنا ومبيتنا عندها لليوم التالى حيث كانت الشوارع لا تزال فى اجزاء منها هائجة والجيش والأمن المركزى يحكم سيطرته على الشوارع.

قالت لنا ونحن نهم بالخروج : يمكنكما التنقل بين اسطح العمارات حتى تصلا للشارع الرئيسى فهو أكثر أمنا لكما وهناك تنزلان للشارع.

وبالفعل قمنا بالصعود لسطح المنزل ومنه انتقلنا لسطح عمارة أخرى ومنها لعمارة أخرى تنخفض مترين أو ما يقل .. هناك وجدنا فوق السطح طلبة آخرين محتجزين.

قال أحدهم : كنت أسير فى الشارع فسمعت اصواتا عالية وطلقات النار مصوبة نحوى فاختبأت فى مدخل العمارة الى ان اشار لى أحد الطلاب بالصعود لأعلى.

قال آخر : أين الرخاء الذى وعدنا به؟ .. هل يعنى الرخاء لديه ألا يجد الفقير غذاءه؟!.

قاطعه الأول : نعم .. اصبح حديث السادات عن الرخاء مملا .. يتحدث هو عن الرخاء فالاسعار ترتفع .. الفقراء

الذين قاتلوا فى أكتوبر يبحثون عن طعامهم فى صناديق القمامة .. وابطال الانفتاح يفتتحون كل يوم مصنعا للكاراتيه.

قلت : سمعت كثيرا عن تجار المخدرات الذين تحميهم الحكومة وعن تجار سلاح كبار وعن الواسطة والمحسوبية.

قال آخر : محسوبية .. أخى دفع مائة جنيه علشان يشتغل «ساعى» آمال لو كانوا حيشغلوه «وزير» يدفع كام؟!

سأله أحدهم : أنت طالب؟

قال : أنا واحد من الناس اللى خدعهم الرئيس بالانفتاح.

صمت ثم قال : تركت أرضى فى البلد وقلت أبقى تاجر .. أعتقدت ان التجارة شطارة زى ما بيقولوا .. لكن اتضح انها سرقة ونصب ومص دم الغلابة.

هجرت الشركة بعدما عرض علىّ أحد الضباط ويدعى وائل ان اتاجر فى الممنوع وان تكون له نسبة فى الربح مقابل تغاضيه عنى وان رفضت هددنى بتلفيق قضية مخدرات لى.

وذات يوم وجدت القوة ذاهبة تجاه المحل فعرفت انهم سيقبضون علىّ لاننى رفضت مساومات الضابط .. ذهبت فارا مذعورا تجاه منزل عضو مجلس الشعب عن دائرتنا وبعد ان توسلت الى الشغالة ان تجعلنى اقابله وافق بشرط الا ادخل الشقة .. فقط أقف فى مشاية الباب وسيأتى ليحدثنى.

وإذا به يأتي غاضبا شائطا وسمعته يسب الناس.

وقف أمامي على بعد مترين قائلا : عاوز إيه؟

قلت وأنا أقع في نفسي : ضابط الشرطة يابيه عاوزني اشتغل تاجر مخدرات .. ودونما أكمل اقترب مني ومسكني من قم جلبابي قائلا : اذن انت سلماوى .. واضاف وهو يضغط على اسنانه ويجرني تجاه حجرة جانبية مظلمة :

ـسوف ابلغ عنك البوليس .. امثالك يستحقون الشنق .. واقترب ناحية التليفون وأمسك بسماعته ولكنني استطعت الفكاك من بين يديه وفررت الى الباب وسط صراخه للعمال بالإمساك بي وحينما كنت في الشارع وجدت ضجيجا فعمدت ان اختبئ فيه لكن الأمن المركزى قام بمطاردتنا حتى قادتني قدماى الى هنا.

استمعنا الى سلماوى بانصات شديد وكان عددنا حوالى ١٥ شخصا وسمعت احدنا يقول : سلطة فاسدة .. والفساد اصبح سمة مميزة لها.

بدأ الصوت يعلو وأخذ يقص علينا حكاية مأساوية أخرى قال :

في الوقت الذى يسكن فيه الباشاوات الجدد في قصورهم ويتحدثون الينا من منابرهم الوثيرة عن الفخفخة التي نعيش فيها تحت قيادة رجل مصر الأول وحرمه سيدة مصر الأولى .. كانت هناك عايشة لم تصل لها يد الفخفخة المزعومة .. عايشة السيدة التي قتل البوليس زوجها

واتهموه بالشيوعية لانه تحدث ذات مرة عن اسرار صديق بيه المقاول العظيم النزيه الذى ارهقتنا الصحف والتليفزيونات والكاميرات باستمرار حديثها عن نزاهته.

لقد كان صديق بيه أكبر مقاول يتاجر بحياة السكان .. وعشرات العمارات التي قام بانشائها تهدمت فوق رءوس ساكنيها .. ولا حس ولا خبر.

وليت ذلك فحسب بل انه يتاجر في الممنوع من دولارات الى مخدرات مرورا بالآثار .. ولقد قام زوج عايشة بإبلاغ الشرطة عن جرائم صديق بيه وقد دلهم على معلومات خطيرة عنه وبعدما تمت تملية البلاغ تركوه يروح وعندما وصل البلاغ لجهات عليا جاءت الأوامر بالقبض على متولى وليس على صديق .. لقد اقتلعه البوليس في الليل من بين اطفاله وزوجته البالغة الخمسة والعشرين عاما.

وفي اليوم التالي قاموا بالقاء القبض على عايشة وهناك عذبوها بالماء المغلى وبالصعق الكهربائي ثم قام أحد المخبرين بمضاجعتها رغما عنها والتقطوا لها صورا .. ووسط دهشتها مما يحدث لها بلا سبب افرجوا عنها واخبروها انها يجب ان تعتبر متولى الشيوعي الخطر المطلوب القبض عليه هاربا رغم انها تدرك انه مقبوض عليه وانه لا شيوعي ولا ينتمي لاى فكر وهددوها بتلفيق قضية أداب لها لو سربت أية معلومة عن اعتقال زوجها.

انهارت السيدة المسكينة في منزلها وقد آثرت في نفسها الا تفكر كثيرا في مصير زوجها رغم ادراكها انهم قتلوه ..

والآن لا تجد من يعولها واطفالها وتعيش على التسول .. لقد شاهدتها بنفسي تلوك الطعام الذى خصصه أحد البوابين كمأكل للقطط فى مدخل العمارة.

قلت صائحا من أعماقى :

ان ما تفعله تلك الحكومة بمواطنيها لا تفعله اكثر الحكومات ديكتاتورية فى العالم.

وأخذ كل واحد منا يحكى تجربة شاهدها وسط تحسر الآخرين واشتياط غضبهم لدرجة ان احدهم اندفع هابطا على السلم متجهما مرددا : سوف اقتل اى عسكرى اراه.

لولا ان انطلق اثنان يمسكانه ويقولان له ما يفيد ان هؤلاء العسكر الغلابة هم من ابناء طبقتنا.

قتل صائحا : سوف نحارب هذه الحكومة وسوف نفضحها ونفضح للعالم جرائمها .. سوف نتحدث عن الانفتاح الاقتصادى الذى تحول الى سداح مداح .. سوف نتحدث عن الغبن والمحسوبية والواسطة .. سوف نتحدث عن الفقراء والمتسولين الذين يغطون شوارع القاهرة وكل مدينة فى بر مصر فقط علينا ان ننظم أنفسنا.

تحدث احدهم مستغربا : هل سنحارب الحكومة؟

قلت : نعم .. سنحاربها ولكن بأقلامنا .. ما علينا سوى تنظيم انفسنا.

وشرعت بعد ذلك فى تجهيز ورقة وقلم وقمت بأخذ اسم كل واحد منهم وعنوانه ومهنته وان كان فى البداية بعضهم

أحجم عن تلك البيانات لولا حماسة الآخرين التى دفعتهم لمزيد من الثقة.

كان من بين الاسماء تخصصات متنوعة فالمحاسب كلفته بحسابات النشرة وجعلت من نفسي رئيسا عاما لها والمحامى جعلته يصيغ العبارات والجمل والموضوعات وهكذا .. حتى سلماوى والثلاثة العمال الآخرين جعلتهم مسئولى التوزيع .. اما عن التمويل فقد تبرعت انا بخمسة جنيهات شهريا لها وكذلك فعل المحامى .. اما أحد الأشخاص فقد تبرع بمبلغ خمسمائة جنيه مرة واحدة .. استقر رأينا على وضعها فى البنك باسمى .. وتبرع احدهم بجنيه واثنين ولا شيء.

□□

أما عن إعداد النشرة فمن الممكن كتابة النشرة بالآلة الكاتبة التى يملكها أحدنا ثم نقوم بتصويرها وهنا لن تتكلف سوى سعر التصوير.

ولحين رفع حظر التجوال المفروض على المدينة مكثنا فوق سطح العمارة لليوم الثانى كله وكدنا نتضور جوعا لولا ان اصحاب البيت الذى كنا فوق سطحه كانوا يمدوننا بأطباق الأرز والعدس من حين لآخر ولقد وضعنا فى ذلك خطة العمل بحيث نلتقى بشكل مستمر فى يوم الخميس من كل اسبوع بشقة احدهم.

ولقد وعدتهم بزيادة التمويل وزيادة اعداد المنضمين للجماعة التى سوف تسمى نشرتها باسم «المحرر» ولقد

عكفنا على وضع البيان التأسيسى للجماعة وقد اشتمل على «اننا لسنا جماعة تخريبية واننا لسنا يسارا ولسنا يمينا ولكننا وطنيون هالتهم مظاهر الفساد فى البلاد واننا لا نتلقى دعما من أية جهات أجنبية ولا نسعى للحكم وغير مستعدين للمساومات للتخلى عن أهدافنا الوطنية وهى :

- العدالة الاجتماعية

- لا سلطة فوق سلطة الدستور وتفصيل القانون

- لا ولاية لأحد على أحد .. ولا وصاية لاحد على الوطن والوطنية

- التحقيق القانونى فى أى واقعة فساد وتصدر السلطات عقوبات رادعة لها

- نستمد افكارنا من حركة الجماهير

- لا تنمية لا يعيش فيها المصرى بكرامته

- استرداد فلسطين وكافة الأراضى العربية المحتلة».

وبعد ان انهينا الترتيبات الخاصة بالبيان الختامى عكفنا على خطة توزيعه وكانت على طلبة الجامعات والمساجد وكل أماكن التجمعات.

وفى اثناء انصرافنا اقسمنا باسم الوطن يمين الجماعة ويتضمن عدم افشاء أية معلومات عنها مهما كانت ولأى جهة واننا وطنيون مخلصون حبذوا الوطن عن السكن.

ثم انصرفنا واحدا واحدا على أمل اللقاء الخميس القادم.

كان الشارع وكأنه شارع لمدينة هجرها أهلها فارين وليس بها سوى سيارات زجاجها محطم وقطع طوب وشكائر أسمنت مملوءة بالرمل هنا وهناك وبقايا أشياء محروقة.

كنت أسير وأنا مرعوب اتحسس طريقى نحو المدينة الجامعية وانا لا أدرى اذا ما كان يمكننى الدخول أم لا ؟ وماذا سيحدث لى؟

عموما .. لم يكن المكان بعيدا عن المدينة الجامعية .. وقد تشجعت حينما رأيت عددا من الطلبة واقفين امام مدخل المدينة .. كانوا يريدون الدخول اسرعت نحوهم .. كان الأمن يطلب من كل واحد منهم بطاقته الشخصية ليعرف اذا كان غريبا عن البلد أم لا وكان يسألهم ايضا عن بطاقات الاقامة بالمدينة والحمد لله كانت الاثنتان معى.

جاء دور سؤالى .. قال الضابط بصرامة : بطاقات؟

اخرجتها فتفرس فيها بشدة ثم سأل : أين كنت؟

قالت له : عند اقاربى حتى ابتعد عن الأحداث.

اضاف : بطاقة المدينة.

ودونما يلمسها نظر عليها بشكل عابر واشار بيده لرجاله كعلامة على موافقته على دخولى.

حمدت الله وانزاح الخوف قليلا من أعماقى بينما كان الخوف الاكبر باقيا وخاصة بعدما عرفت انهم اقتحموا مدينة الطلبة والقوا القبض على عدد ضخم منهم .. وان الصحف

نشرت نبأ عن اعتقال السلطات لشبكة ضخمة من الشيوعيين الذين تسببوا في احداث الايام القليلة الماضية وانهم مأجورون من الخارج وينتظرون احكاما تتراوح ما بين الشطب من كلياتهم .. وحتى الإعدام!!

وبصراحة لم يخفف من خوفي سوى لقائي لصديقي عاطف الذي لا حول ولا قوة له ان حدث مكروه لي .. فقد وجدته ولأول مرة يتحدث في السياسة حيث كان ساخطا على النظام وحزينا على الدماء التي اسالتها قوات الشرطة من الطلبة بالقتل العشوائي .. وهذا الكلام اعطاني - دونما يدرك عاطف بالطبع - قوة مستمدة من الحق على تنظيم «المحرر».

سألني عاطف عن سبب اختفائي الايام الماضية لكنني اختلقت له عذرا هشا والحمد لله انه صدقه.

واذكر انني ذات يوم سمعت طرقا شديدا على الباب وقد كنت نائما .. حاول عاطف ان ينهض لفتح الباب لكنني نهضت قبله لانني كنت الاقرب الى جهة الباب .. فتحت الباب فشاهدت طالبا ملتحيا وخلفه طالبان ملتحيان وقبلما أسأله القي عليّ بالسلام وقبل ان احدث ايضا قال كلاما كثيرا بلغة عربية فصيحة لم افهم منه سوى معاتبته لنا على عدم القيام لصلاة الفجر واننا سنصبح لا فرق بيننا وبين الكافرين .. اردت ان أسأله عن وصايته على شرع الله لولا ان نهض عاطف مسرعا وقال : لا يا شيخ .. لقد سهى علينا عن الصلاة من عند الشيطان واننا سنقوم لادائها بعدما

نغير سروالنا (!!) انصرفوا بينما نظرت تجاه عاطف لاستمع منه عن سبب ما فعله فقال :

ياصديقي .. هل تود ان يكسر لك ضلع أم ان تنجو من ذلك وتصلي؟

وعرفت انهم يعاقبون من يرفض الصلاة بالضرب وان الحرس الجامعي لا يتدخل لمنع ذلك!!

وفعلا صليت معهم الفجر .. بل واظبت معهم على الصلاة وكان لي مقصدان من ذلك أولهما انني منذ أمد بعيد لم اتقرب الى الله الذي بيده ان ييسر لي طريقي نحو الخير والثاني حتى تبتعد عني أي شبهة خاصة بالشيوعية ولإحباط أية محاولة لوصمي بها ان سارت الأمور على غير ما يرام.

وفي يوم الخميس وبعد انتهاء المحاضرات كنت متجها الى مقر الاجتماع في إحدى الشقق بوسط المدينة .. ولا أخفي انني كنت مرعوبا من ان يكون الأمن قد رصد اجتماعاتنا ولكنني حزمت رأيي ان للحرية ثمنا لابد ان يُدفع وان أهلنا الفقراء في حاجة الى أي تحرك لانقاذهم.

كانت الشقة في شارع هادئ للغاية .. وان كان المبنى يقع وسط كتلة سكنية يحيطها من الجانبين نهران من السيارات وهو الأمر الذي يجعل العمل اكثر يسرا.

صعدت عدة سلمات ووجدتها .. شاورت نفسي ان اضغط على الجرس أم لا ؟ لكنني ايضا وجدتني اندفع عليه .. فتح الباب ووجدت امامي صاحب الشقة عضو التنظيم .. ويدعى

غانم الذى سلم علىّ بشدة وجذبنى للداخل قائلا :الجميع ينتظرونك.

دخلت عليهم وكانوا يجلسون على منضدة طويلة .. جلست بينهم فطلب منى أحمد - عضو التنظيم ويعمل محاميا وهو الاكثر تمسا للتنظيم - ان أعيد تقسيم الادوار من جديد.

وبالفعل تناقشنا فى امكانيات كل شخص وقمنا بتوزيع الادوار وقد استقر رأيهم على ان اكون رئيسا للتنظيم ومديرا للصندوق رغم صغر سنى بين معظمهم .. وبعد ذلك قام كل واحد منهم باخراج ورقة للعمل الذى أعده .. قرأت الأوراق ثم اعطيتها لأحمد مسئول الديسك الذى انتحى جانبا ليقوم باعادة صياغة الموضوعات .

لكن قابلتنا مشكلة .. وهى انه لا يوجد احد بيننا يجيد الكتابة على الآلة الكاتبة .. جلسنا ساعة تقريبا نفكر فى كيفية التغلب على المشكلة.

اقترح احدنا استئجار من يقوم بهذا العمل .. لكن الجميع صاحوا ضده رافضين خشية انكشاف أمرنا .. وقد طرحت حلول كثيرة كان الجميع لا يوافق عليها .. لكن المعلم شيحة - رغم غرابة اسمه إلا أنه هو الذى تبرع بمبلغ خمسمائة جنيه وهو رغم عدم حصوله على مؤهل علمى لديه احساس صادق بحب الوطن وتفهم كبير لمشاكله ولأحاديث المثقفين وكأنه مثقف افتقد المؤهل -لكن هذا المعلم اقترح ان يستغل أحد صبيانه فى المقهى لأداء هذا العمل وانه واثق تمام الثقة بإخلاصه لانه ايضا وطنى على حد تعبيره.

واستقر الأمر على اقتراح المعلم شيحة وتم ارجاء تنفيذ العدد الأول لحين حضور صبى المعلم« الوطنى» ولا مانع من ان يقوم بالعمل خلال هذا الأسبوع وقام احمد باعطاء المعلم الأوراق التى اعاد صياغتها والذى اتفق مع صاحب الماكينة على ان يحضرها له فى بيته فى يوم ما.

وقبل انصرافنا اتفقنا على ان ننصرف فرادى وان نحضر فرادى .. حيث سمعت منهم انهم حضروا بشكل مثير للريبة لدى من يراهم.

وفى الاسبوع الثانى حينما ذهبت وجدت الجميع ايضا فى انتظارى ووجدت صبى المعلم ويدعى ميمى بيننا وهو الأمر الذى اثار حفيظتى وطلبت منهم الا يحضروا معهم اى شخص مهما كان موثوقا به الا بعد اخذ رأى الاغلبية .. فوافقوا جميعا وقد تفهم المعلم شيحة السبب وهو الأمر الذى جعلنى اقدره بشكل أكبر.

وفوجئت بالأوراق مكتوبة جميعها وان كان هناك تحفظ على طريقة اخراجها ولكن لا بأس يمكننا التجويد فى المرات القادمة وقد أوكلت لغانم مهمة تصوير الأوراق الخمس بحيث تصور الورقة خمسمائة مرة ويشاركه جودة فى تدبيس كل خمس ورقات معا وقد نصحتهما بأن يمنعا اى واحد - حتى لو كان صاحب ماكينة التصوير - من قراءة الأوراق وان يقوما بتصويرها فى اى موقع بعيد اعن وسط المدينة حتى لو اكتشف احد مضمون الورق وبلغ الشرطة يكون مجال بحثها فى مكان بعيد.

وطلبت منهم الا يتصرفوا فى توزيع المنشورات الا بعد احضارها للشقة ويتولى سلماوى وميمى والآخرون توزيعها حسب المناطق المتفق عليها بيننا.

.. وكما كانت سعادتنا ونحن ننصرف وفى انتظار ان نرى المنشور فى يد الناس غدا أو بعد غد.

□□

على ناصية الشارع وجدت المعلم شيحة ينتظرنى وقد سبقنى فى الخروج .. طلب منى الذهاب للمقهى قليلا.

ذهبت معه وكان يحدثنى بشهامة ابن البلد عن الظروف السيئة التى يعيشها الناس الفقراء وعن حدوتة الانفتاح وعن كيفية قيام الحكومة بإهدار مكاسب اكتوبر حيث لم تسترد سيناء والقدس.. وعن الخبراء الأمريكان الذين يتوافدون للبلاد بدلا من الروس واندهش من قيام الحكومة بالاستعانة بهم رغم علمها الجلى أنهم اعداؤنا.. وتحدث عن الأبهة الفارغة لرجال الأعمال وعن السلام المزعوم الذى قد يحدث.

كانت كلمات المعلم توحى بأنه مثقف كبير، رغم أن جلبابه الصوف والكوفية التى يضعها فوق صدره تنبئ عن ثقافة محدودة وثراء معلمين.

قلت له: لماذا أنت وطنى رغم أنك.....

قاطعنى: رغم أنى أبدو كفلاح.. أليس كذلك؟

حاولت التحدث لكنه قال: لقد استشهد أبى فى ٥٦ واخى فى ١٩٦٧ حتى إن جدى الرابع قتله الانجليز.. فكيف لا تريدنى أن أسير على نهج وطنيتهم.

صمت وكأنه يفكر ثم قال : إننى أحمل شهادة الاعدادية العامة لكننى وجدت نفسى مضطرا إلى عدم اكمال تعليمى حتى تتسنى لى رعاية مصالح أبى والصرف على اخوتى بعد موته.

.. كان المعلم يتحدث وكانت كل كلمة يقولها تحمل لى مفاجأة لم تخطر ببالى ولكن اجمالا كان بطلاً يستحق التكريم.

انقضت سهرتنا معا وكنت اراه رغم مآسيه رجلا ظريفا.. حلو الحديث.. وما يلبث أن تجعله مثل أخيك.. تعاشره.. ولكن حدث أمر لم أكن قد اعددت له.. حيث إن الساعة أوشكت أن تشير للثانية عشرة مساء والمدينة الجامعية تغلق أبوابها الساعة الحادية عشرة.. لم أدر ماذا أفعل لكننى حاولت التظاهر بالرغبة فى الانصراف رغم أننى أود البقاء لأننى قد أبات فى الشارع.

مشيت متثاقلا بعدما ودعته حتى انتهى الشارع القصير وغبت عن نظره ثم سرت فى شارع متقاطع معه وأنا لا أدرى إلى أى مكان اتجه.

وقد كانت الشوارع تخلو رويدا رويدا من الناس والمحال تغلق أبوابها وبعضها أغلق بالفعل فاسودت الدنيا فى وجهى مما خلق لدى احساسا شديدا بالهوان.

إلا أننى سمعت صوتا ضعيفا يناديني قادما من الخلف.. نظرت فإذ بالمعلم يأتى سريعا خلفى يحتضننى وهنا لم اتمالك مشاعرى فأخذت أبكى.

قال: سامحنى يا سيف.

لم تخطر ببالى وبرأسى الغبية تلك المشكلة؟

صمت ولم اتكلم وكأننى محرج من انفلات مشاعرى.. اضاف: كان يمكنك تنبيهى.. فنحن هنا أهل.. كماأنك تدرى أن مخ صاحبك على قده.

ضحكت وقلت: لا.. مخك ليس على قده.. بل أنت انسان نبيل..

عدنا معا إلى الطريق نحو المقهى.. ثم انتحى بى جانبا ودخلت باب عمارة ضخمة يقع اسفلها المقهى وإن كان بابه مفتوحا على الجانب الآخر من الشارع.. كانت العمارة ذات أربعة طوابق.. صعدنا الطابق الثانى واخرج مفتاحا من جيبه وأراد فتح باب إحدى الشقتين الكائنتين فى الطابق.. لكنه اكتشف أنه ليس معه المفتاح المراد استئذن منى ثم دق جرس باب الشقة الآخرى فتح الباب بعد لحظة ولم يظهر من قام بفتحه فتسلل الحاج داخله وتركه مواربا.. ما هى سوى ثوان قليلة حتى عاد ومعه المفتاح.. فتح الباب ودخلنا الشقة.. كانت الشقة مفروشة بشكل جيد وإن كانت لم تستعمل منذ فترة حيث لاحظت وجود تراب وغبار فوق الكراسى والترابيزات.. كنت اريد أن أسأله عن صاحب

الشقة ويبدو أنه ادرك استفساى فقال: الشقتان دول ملك لى.. العمارة كلها والمقهى.. لكننى وجدت نفسى مضطرا إلى إيجار باقى شقق العمارة نظرًا لحاجة البيت المتزايدة.

قلت له بشىء من الدعابة:

إيه اللى رماك على الوطنية يا معلم.. دا انت انفتاحى.

ولكنه رد بدعابة أيضًا:

انفتاحى ايه يا شيخ.. لو كنت منهم كنت حاكوّش على الشارع كله.

بس هو كده الحب.. أعمى واطرش.

ضحكنا معا.. بينما صوت طرقات خفيفة فوق شراعة الباب الزجاجية ..انتبه المعلم.. فاستدار ناحية الباب بينما كنت مشغولا بمحاولة مسح الكرسى بخرقة بالية إلا انه جاء حاملا صينية ممتلئة بالطعام.. وضعها فوق الترابيزة ودعانى إلى الاستعداد لتناول الطعام..

وبصراحة كنت جائعا لأننى لم أتناول سوى سندوتش بيض فى الصباح من وجبة المدينة الجامعية مما جعلنى لا أحاول التصنع أيضا بعدم الرغبة فى الأكل .جلسنا للعشاء وإذ بطرقات أخرى على الباب فنهض لها المعلم وعاد حاملا فوطة وجلبابا ابيض.

قال المعلم: هذه ملابسك يمكنك ارتداءها بعد الطعام.. ثم عاد وقال بعد صمت: هذه الشقة خصصتها لمثل تلك الأغراض.. للضيوف ولأى ظروف طارئة.

سألني: من أين أنت يا سيف؟

قلت له موطني وقصصت عليه الكثير من عادات الصعيد لأنه كان يتمتع بتلك الحكايات ويطلب المزيد.

وانتهت السهرة وقد عرفت أنه آب لبنت وحيدة في سن الخامسة عشرة.. وأنه يحب زوجته التي عاشت معه سنوات العذاب حتى أصبح ميسور الحال وقد عرض عليه زملاؤه الزواج ثانية من سيدة أرملة أو مطلقة ينجب منها ولدا إلا أنه رفض أن يبيع عشرة العمر.

وما إن نمت حتى غططت في نوم عميق ولم أدر بنفسي إلا والساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا وقد ايقظني صوت جلبة فتح الباب.. وكان المعلم قادمًا حاولت أن انهض له إلا أنه رفض طالبا مني التصرف بمنتهى الحرية.

احضر المعلم معه الافطار وهذه المرة استطعت دونما قصد طبعا مشاهدة فتاة تقدمها له امام الباب.. الفتاة الجميلة كانت ابنته وسمعته يدعوها بـ «مريم».

لم أكن ألقي بالا بمريم.. ولم أكن أدري أنها ستكون حبي العظيم.. العابر.. الباقي..

قال المعلم وقد بش وجهه: لقد أحضرت لك المفاجأة حركت وجهي تجاهه مستفسرًا فقال وقد اخرج من شنطة بلاستيك صفراء في يده مجموعة أوراق:

انظر.. هذه هي المحرر.

تلقفتها منه.. اقلب صفحاتها بشغف بينما قال:

لقد احضرها سلماوى صباحًا وقال إنها وزعت بعناية في كل مكان.. وفي هذا الصباح ستكون حديث المدينة.

سادت لحظة صمت وكلانا يقلب في نسخة بيده ثم قال محبطا:

رائعة.. ولكن ماذا تفيد هذه في كم الفساد الهائل؟!.

قلت أخفف من احباطه وأحاول أن اصنع بطولة من هذا العمل: يا عم شيحة.. هناك فيلسوف يقول قطرة الماء تثقب الحجر لا من العنف ولكن من استمرار التساقط عليه ، علينا فقط أن نستمر.

هز رأسه لأعلى وأسفل وكأنه اقتنع بما أقول.

وهنا استأذنت للانصراف.. حيث على أن استمر باقي الأسبوع للتفرغ للمحاضرات التي اهملتها.

وسمح المعلم لي بالانصراف لكنه طلب مني أن اعامله كأب لي وأن اناديه بابا أو عم.. لكنني استسخفت الأخيرة.

□□

خرجت من شقة المعلم شيحة.. وأنا مهموم.. ولكني لا أدري لماذا؟! حيث شعرت لأول مرة في حياتي بالخوف.. الخوف من كل الناس حولي والخوف من نفسي ذاتها.. أردت أن أصرخ معترفًا بالتوبة عن جريمة شريفة.. فاشية النظام جعلتني انساق لها.

تذكرت عايشة التي سمعت قصتها في أثناء ليلة السطوح وهو الأمر الذي اقلقني كثيرا على والدتي.. تلك المسكينة

التى قد يذلونها من بعدى أو من أجل الانتقام منى.. تذكرت وهن خالى حامد وعمتى منصورة.

كنت اسير بسرعة.. أريد أن ألتهم الأرض حتى أصل إلى مسكنى فى المدينة الجامعة.. وما إن وصلت حتى أمسكت كتابا من كتبى واخذت أقرأ فيه بنهم.. كنت محتاجًا إلى الشعور بالأمن وعدم الضياع.

وأذكر أننى فى هذا اليوم استطعت استذكار الكتاب بالكامل فى عدة ساعات لحين حضور عاطف.

سألنى عاطف عن سبب عدم حضورى البارحة وعن المكان الذى قضيت فيه الليلة؟ وهو السؤال الذى كنت أتوقعه ولكنى مازلت أبحث عن إجابة له إلا أننى قلت:

كنت فى بيت المعلم شيحة؟

عاطف: المعلم شيحة؟

ـ نعم.. شخص تعرفت إليه.. لا يحمل مؤهلا لكنه أكثر ثقافة من حملة الشهادات العليا.

عاطف: تعرف إليه. ربما .. ولكن هل تبيت عنده؟.. ماهى الحقيقة يا سيف؟ قل لى عنده أم أن بنات البندر جعلتك تنسى دينك واهلك؟

ـ يبدو أنك سرحت بعيدًا.. يا صديقى.

أنا لا أعرف بنات.. ولكننى..

عاطف: كنت أخشى عليك منهن... وبعد ذلك لا يهم لكننى أرجوك ألا تبات مرة أخرى بالخارج.. فهذه المدينة مازلنا لا نعرفها حتى ولو بقينا فيها سنوات طوالا.

ـ نعم.. شكرًا لاهتمامك.. قل لى ماذا فعلت أنت يوم أمس؟.

ـ لا شىء لم تكن معى سوى محاضرتين بينما أمضيت باقى الوقت فى الاستذكار.. أما الآن فيجب أن ننام حتى نستطيع السهر بعد ماتش الكرة المرهق.

.. نام عاطف بعدما أثلج صدرى بحديثه وعوضنى عن أمن افتقدته ليلة البارحة!!.

□□

اكتشفت مدى تأثير المنشورات التى تضمنتها «المحرر» فى الطلبة ، حيث سمعت همسات هنا وهناك تسرى سرا عن الحديث العملاق والمحظور الذى تتبناه النشرة.. وعن اعجاب كل من قرأها به.

وفى أثناء المحاضرة اندهشت حينما سمعت الدكتور المعروف بعدائه للحرس الجامعى وحبه الاشتراكية وهو الأمر الذى ضيع منه فرص الترقية ،يتحدث بكثير من المصطلحات التى أوردها مقال أحمد ومقالى أيضا مما أكد لى أنه قرأها ولذلك تلاشى الخوف عندى وحل محله الإصرار على استكمال المسيرة.

وبعد أن انتهت المحاضرة تسللت خلفه مسرعا نحو صالة المدرسين..

إلا أنه أدرك اننى اسير نحوه فوقف واستدار نحوى قائلا:

تريد أن تستفسر عن شيء غامض لديك؟

- قلت وأنا مرتبك:

نعم.. لا

قاطعنى بقوله وهو يردد عبارتى:

قلت ما شئت.. لا داعى للارتباك؟

- نعم.. أردت أن استفسر عن...

- عن ماذا؟

- عن المحرر «قلتها سريعًا»

- المحرر «قالها بتأن وكأنه يتدارسها»

- نعم المحرر

التقطنى من يدى ووقف معى فى نهاية الطريق

قال لى: ما اسمك؟

- قلت - سيف منصور

- سيف منصور .. س.م

- نعم س. م

- لكنك على ما يبدو قرأت كثيرا عن الاشتراكية.. والاشتراكية العلمية والماركسية والأدب العالمى؟.

- ليس بالكثير.. لكننى قرأت لكم كتبا كثيرة أيضًا.

- إذن.. كيف أعددتهم النشرة؟

قلت وأنا ارتجف قلقًا:-

أنا وآخرون

- فلنتقابل غدًا الساعة الثانية ظهرًا لنتحدث معا

- نعم.. شكرًا يا دكتور.

تركنى الدكتور بينما مازلت واقفا مكانى أفكر فيما اذا كان الدكتور وطنيا حقا أم أنه عميل للحرس تخفى فى ثوب المعارضين.. وخشيت أن اعرض الزملاء فى النشرة للخطر وكان فى قرارة نفسى اننى لن أفشى سرهم مهما يحدث لى..

رغم تثاقل الخطى تعمدت أن اهدئ روعى بأن الغد لن يحمل سوى كل خير.

سألنى عاطف - بينما كنت على وشك الاستعداد للنوم - عن النشرة التى يتهامس بها الطلاب وعن الحكايات المثيرة التى تناولتها فتظاهرات بأنى لا أعرف عنها شيئا.

وفى اليوم التالى سمعت أن أمن الدولة اعتقل الدكتور أحمد عبدالرحمن فذعرت بشدة واستأذنت من زملائى الذين كانوا يتحدثون.

ملأت الهواجس نفسى فانسحبت من الكلية كلها بل الجامعة ولم أذهب هذه المرة إلى المدينة الجامعية خوفًا من

أن يرشدهم الدكتور عنى كخيط يقود إلى باقى الزملاء فيقومون باعتقالى.. قصدت هذه المرة مقهى المعلم شيحة.. حيث من المؤكد اننى سأجد لديه الماؤى والمأكل ومريم.. اوه.. مريم.. تلك الفتاة المختبئة البريئة ذات الأعوام القليلة.

وصلت إلى المقهى.. جلست بمفردى بعدما تلفت حولى بحثا عن المعلم ولم أجده.. حضر لى ميمو الذى صافحنى بشدة واقترب منى هامسًا: والله القلم اللى كتبت بيه بينقط سكر يا أستاذ.. والمحرر كسرت الدنيا.. تشرب قهوة ولا شاى.. شربات أحسن؟!.

انصرف ومازلت اتصنع القراءة فى صحيفة بيدى إلى أن حضر المعلم الذى دعانى للجلوس على «ترابيزته» بعد السلام الحار..

قلت للمعلم عن كل شىء حدث لكنه راح يطمئننى إلى انه سوف يتقصى الأمر..

خرج عدة دقائق ثم عاد قائلا:

طلبت من زميل لك فى الجامعة أن يخبرنا بما حدث للدكتور أحمد عبدالرحمن.

اردت أن اتحدث لكنه قال مؤكدا:

أنا أثق بأنه أمين.. ولكنه لا يحب السياسة.. انه يعشق الأهلى.. يمكن التعرف إليه بعدما يحضر.

قلت: متى؟

- ربما اليوم أو غدًا..

مضت عدة ساعات تناولت مع المعلم شيحه طعام الغداء فى شقته ، حيث احضرته «مريم» وقد دعاها ابوها إلى الدخول بالصينية داخل الشقة مما اتاح لى فرصة التعرف إليها..

قلت: شكرًا يا آنسة.

ردت بصوت خفيض وهمت منصرفة لولا أن طلب منها المعلم الانتظار قائلا بقليل من الابتسام:

سلمى على سيف يا مريم زى أخوكى؟

وما إن لمست يدى يدها حتى تاهت الحروف من لسانى وأصبحت أنا وهى فى احراج شديد لدرجة اننى لم أتمكن من النظر فى عينيها سوى مرة واحدة سريعة أما هى فربما لم تستطع حيث كانت عيوننا مصوبة ناحية الأرض..

ولكن بعدما تناولنا الغداء حضرت مريم ثانية لإحضار الشاى وفى هذه المرة كنت أكثر شجاعة من سابقتها حيث شكرت لها على تعبها.

ولما فرغنا من تناول الشاى نزلنا مرة أخرى للقهوة وقد تركنى المعلم مع شخص عرفنى إليه ليعلمنى لعبة «الدومينو» والطاولة وعاد ومعه شاب فى مثل سنى تقريبا ، حيث أخبرنا بأن الدكتور اعتقل بسبب نشرة تسمى «المحرر» يشتبه فى انه قام بتنفيذها وتوزيعها.

وبعدما امضيت وقتا مع هذا الشاب لا يتجاوز حديثى معه عن معرفة كليته وشعبته ومقرراته الدراسية أشار المعلم علىّ بأن أسرع بكتابة مقالات العدد الجديد حتى ننفى عن الدكتور التهمة فيفرجو عنه بدلا من اجباره على الاعتراف وفعلا طوال الليل قضيت الوقت فى الكتابة.

ولا اخفى اننى كنت آمنا فى منزل المعلم شيحة وأشعر معه بجو عائلى مريح ، حيث كنت اعتبره فى مقام والدى أو عمى وكان لـ «مريم» القسط الأوفر من اشاعة هذا الجو.

لقد كانت مريم ببساطتها خلابة حقًا وبحيائها مثارًا للامتنان ..أما أنوثتها فكانت أنوثة ناعمة تجسدت فى شعرها المسترسل كل معانى الدفء الحلال لدرجة اننى تمنيت لو أكون منتميا إلى تلك الأسرة كى انعم بالحديث الرقيق الهادئ مع مريم.

□□

تباطأت يوما عن العمل فى « المحرر» لحين اخبار باقى المجموعة بعقد اجتماع عاجل.. وكان قد قام ميمو بالمهمة وتحدد لها الليلة.. ذهبت مع المعلم إلى شقة غانم وهناك كان الاجتماع قد أعد له..

أحمد أعد مادة صحفية رائعة عن فساد وزير شغل الرأى العام وأكد أنه بائع مخدرات كبير يشاركه شخص أكبر بكثير منه.

وكانت النشرة هذه المرة ساخنة جدًا.. قرأها أحمد كلها وأعاد صياغتها.. وبعد أن انتهى من قراءتها.. تحدث أحد

الأعضاء عن الاعجاب الشديد الذى لاقته المحرر لدى الناس وتحدث آخر عن وجود مؤيدين لها ويرغبون فى الانضمام إلى أسرة تحريرها ولا يعرفون كيف يحدث ذلك .

واضاف سلماوى أنه سمع أحاديث يرددها البعض عن أن وراء هذه النشرة رجالا شرفاء كبارا فى الدولة وأن لها كتائب مسلحة.

ضحكنا جميعًا على التعليق الأخير وقلت: نعم إننا كتائب مسلحة بالوطنية وحب المجتمع.

انفض الاجتماع بعدما وضعنا آلية جديدة لضم اعضاء جدد على ألا يعرفوا أى شىء عنا وذلك حتى لا ينكشف أمرنا من جانب ، ومن جانب آخر لكى نثبت الشعور الذى نعتقد أنه سائد عن وجود شخصيات كبيرة تقف خلف «المحرر» مما يشجع الناس على الانضمام إليها أو قراءتها فى العلن.. انطلاقا من وهم شائع لدى الناس خاصة المصريين وهو وهم المسرح.

كما قمنا بزيادة قيمة التبرعات حتى لا نضطر إلى أن ننفق كل اموالنا فى اعدادها.

وانتهى الاجتماع وانصرفوا جميعا فردا فردا وبقيت فى النهاية أنا وغانم والمعلم.

رأيت غانم قلقا بعض الشىء ولم أشأ أن انصرف دون أن اسأله عن سبب قلقه .. وبعد إلحاح قال لى بنبرة حزن: لقد اكتشف البعض أمرنا..

- اكتشف البعض أمرنا.. من؟

- الجيران

- كيف عرفت ذلك؟

- لمحت فى عيونهم تهديدًا أو استجوابا لى.

- ألم يقولوا لك الصراحة؟

- بلى

- إذن، علينا أن نغير الموقع بأى شكل.. فلا مجال للشك، لكن لماذا لم تقل ذلك خلال الاجتماع؟

- لم أكن انوى أن أقوله اساسا لولا إلحاحك، خشيت أن يتهمونني بالخوف، وربما الخيانة.

المعلم مقاطعا: لست خائنا ولن تكون، كل اعضاء التنظيم وطنيون لا يخونون.

قلت: نعم.. سننصرف وسوف أدبر الأمر.

انصرفت مع المعلم الذى كان يتقدمنى بخطوات بينما مازلت ألقى بذراعى حول كتف غانم.

وفى اليوم التالى طبعت المحرر ووزعت فى جميع الجهات المستهدفة، ولم تمض ساعات حتى عرفت أنهم أفرجوا عن الدكتور أحمد عبدالرحمن، ثم اخبرت المعلم بأننى لان استطيع العودة إلى المدينة الجامعية اليوم حتى لا يتم الربط بين حضورى وظهور نسخة المحرر وقد قبل ذلك ممتنا منى.

كما طلبت منه أن يرسل ميمو إلى غانم يلخبره بأنه أدى خدمات جليلة وأنه لأسباب امنية ينبغى عدم حضور اجتماعاتنا ثانية التى سننظمها مع اصدار كل عدد.

فى المساء صعدت بصحبة المعلم الى الشقة لأقضى ليلتى ولكن هذه المرة دعانى إلى الذهاب إلى شقته المقابلة للشقة التى اقيم بها منذ يومين.. كانت وثيرة بشكل جيد لم اشاهده من قبل بوصفى ريفيا بسيطا لم تتسن له مشاهدة أثاث منازل أهل المدن، ورائحة الزيت الذى طليت به الحوائط لم تفارقها بعد..

لاحظت أنها أوسع بحجرة عن الشقة الأخرى، قادنى المعلم إلى الصالون بينما أعدت «مريم» الطعام الذى يبدو أنه كان معدا أصلا وانصرفت إلا أن والدها دعاها إلى العشاء معنا لكنها رغم رفضها فى بادئ الأمر، قبلت.

تحدثنا قليلا فى أثناء تناول الطعام واكتشفت أننى وهى ايضا بدأت تزول الرهبة بيننا واصبحنا نتحدث بقليل من الكلفة.

فرغنا من الطعام واعدت مريم الشاى، رن جرس الباب وكان القادم ميمو الذى طلب المعلم للنزول معه لأمر مهم، وقفت أنا اعدل من هيئتى استعدادا للخروج لكنه ضغط علىّ بيده لكى أجلس.

جلست مرتبكا بعض الشىء وان كانت هى قد تركت الباب خلف ابيها مواربا.. قلت لقتل الصمت:

آنسة مريم.. ماذا تحبين قراءته؟

تحدثت وهى تكشف عن صوت طفولى

احب الشعر والاطلاع.

صحت مدهوشا: الله، تحبين الشعر.. مثلى تماما.

أدركت اننى ربطت بين الامرين دون قصد فقلت مستدركا:

لكن ليس بشكل كبير.

ثم استطردت اسأل: ولكن لمن تحبين الشعر؟

قالت وهى اكثر اندفاعا: احب قراءة كتب التراث والادب العالمى والمحلى.

- العالمى والمحلى؟ لاول مرة اجد من له مثل اطلاعاتك.

- لدى مكتبة شيقة بها كتب لكبار الكتاب والمبدعين.

- اريد ان استعير بعضا منها، لكن ليس الآن، الان اريد شعرا.

- شعر من؟ لى.. ام لغيرى؟

- أتكتبين شعرا؟.. اننى اكتشف فيك كل يوم جديدا.

- سوف تجعلنى اغتر ياسيف، لكن الا تكتب شعرا انت؟

- كنت، لكننى اقلعت عن ادمانه بعدما هاجمونى فى ايام دراستى الثانوية لرداءة نظمه ووزنه وقافيته، لقد قالوا لى اننى اكتب شعرا لا طعم له ولا لون.

ضحكت ثم انخرطت هى فى الضحك.

عاد المعلم وهو يتحدث وكأنه يجيب عن سؤال سألناه:

أحد الزبائن اعاد لى دينا قديما.. كنت قد فقدت الامل فى رجوعه.. يبدو اليوم كله سعيدا لدينا.

أمضيت بقية الليل عندهم نشاهد التليفزيون الذى لم اكن اشاهده سوى فى مقهى المدينة الجامعية ثم بعد ذلك انصرفت للنوم.

بصراحة شعرت بأننى رغم حاجتى للنوم فى حاجة أمس إلى التفكير، واحيانا اقوم بكتابة خواطرى لكننى لم استطع تكوين جملة مفيدة، كلمات كلها جياشة بمعانى الشوق والقلق والوجد لكنها غير كاملة، شخبطة كثيرة ملأت ورقا كثيرا بجوارى.. واذكر اننى حاولت النوم عدة مرات لكننى فشلت، فذهنى منشغل بأشياء كثيرة: المحرر والدكتور وعاطف والمدينة الجامعية والبلد والاهم من ذلك كله مريم والمعلم.

وكانت الاسئلة تدور حول تلك الجلسة اللطيفة مع مريم بكل مقوماتها، وهل تصلح ان تكون زوجة لى؟.. وكيف؟ وهل يجوز؟!

لكن القنبلة التى اوردها تفكيرى أن المعلم ربما يدبر لأمر مثل ذلك والا فما من سبب قوى لتقريبى نحوها منذ أيام واكتمل الامر بطلبه لى كى امكث معها بمفردنا بالشقة.

لكن هذا الافتراض جعلنى قلقا ومرتبكا.. اذ يتحتم على

القيام بإجراءات معينة لإثبات رغبتى أو رفضى للموضوع.. وخشيت عواقب كلا الموقفين إذ ان ابتعادى سيفقدنى علاقتى بالمعلم وانا اعتبره كأب وان قربى سيحملنى اعباء انا ف غنى عنها.

هكذا طوال الليل وحتى الصباح دوامة من التفكير.. الى ان ثقلت عيناى ولم افق الا على رنين جرس الباب وكان القادم هو المعلم الذى اخبرنى ان الساعة الرابعة عصرًا وانه قلق شيئا ما على.

وقبل ان نتناول طعامنا شكرت المعلم ومريم لحسن استضافتهما لى ولكرمهم الكبير.. وابلغتهما حياتى لام مريم التى لم تكن موجودة واحضرت لى مريم كتاب شعر واذكر أننى قلت لها اننى حاولت الكتابة ليل البارحة لكن لم ينتج عن هذا الأمر سوى كومة من الزبالة بالشقة دون بيت شعر واحد. ثم انصرفت.

□□

دخلت المدينة الجامعية.. كان كل شيء هادئا على الإطلاق والأمور تمضى كما تركتها منذ يومين، بعض الطلبة يسيرون هنا وهناك خلف وأمام المبنى.. اصوات .. ضحكات مختلطة بكلمات لأصوات عالية.. ولقد شعرت بالاطمئنان لذلك ، حيث ان وجود الحرس واعوانهم المعروفين لدى الطلاب جيدًا يجعل الأمور تسير بغير طبيعتها ويتخلله صمت رهيب.. لذلك أعملت ذهنى لأبرر لعاطف سبب غيابى اليومين الماضيين.. وقبلما أقول له السبب حين

قابلته فى الحجرة وجدته يصيح فى وجهى ماذا تفعل ياسيف؟ لقد قلقت عليك.

أردت ان اتكلم لولا ان وجدته يمسك بيدى وينتحى بى فى نهاية الغرفة ويوشوش فى اذنى عن البوليس الذى جاء بالامس للسؤال عنى واخذ يحذرنى من تورطى فى أى عمل سياسى ..موضحا لى كيف انهم يعذبون السياسيين ،حيث يعلقونهم من ارجلهم ويصعقونهم بالكهرباء واحيانا يقومون بـ....

صرخت فيه ان يكف عن تخويفى وهنا شعرت بأننى ضعيف.. ولا انكر اننى كنت اشعر بالقوة قبل ذلك بلا مبرر او سبب وربما يكون ذلك سببا قويا لاتجاهى إلى السياسة والتنظيمات فى هذه السن الصغيرة انذاك.

.. صمت عاطف وهو يحملق فى وجهى.. لكننى وجدت نفسى ارتمى على كتفه.. كدت ابكى لولا ان دعانى إلى تماسك قواى لأنه يستمد قوته هو ذاته من قوتى.

لم اكد انهى حديثى حتى وجدت باب الحجرة يكاد ينكسر من شدة الارتطام بالحائط الذى فعله هجوم قوات الشرطة.

كان منظرا مرعبا للغاية.. عشرات العسكر والمخبرين يتقدمهم اثنان من الضباط جميعا يحملون اسلحة ما بين مسدسات ورشاشات مصوبة نحو رءوسنا.

كاد عاطف يجرى قافزا بنفسه من الشباك لولا ان امسكت بيده لإيقافه حتى لا يطلقوا عليه النار.

تقدم نحوى الضابط وصفعنى على خدى وهو يتلفظ بالفاظ بذيئة سائلا عن اسمى.. واراد ان يصفع عاطف لولا ان امسكت بيده وهنا لم اتذكر اى شىء إلا وانا ملقى فى زنزانة حقيرة تكاد الفئران والصراصير تصنع فيها ضجيجا.

كنت لا اكاد ارى شيئا على الاطلاق.. سوى ظلام دامس وصقيع يسرى فى جسدى.. اردت ان احرك يدى فوجدتها تؤلمنى ..حركت يدى الاخرى لأتحسس الأمر فاكتشفت ان يدى مربوطة بشاش واكتشفت أيضا وجود تورم فى وجهى بالقرب من عينى وايضا مربوطة بشاش.. يبدو اننى تناولت وجبة قوية من الضرب.. لكن ماذا فعلوا بعاطف؟! انه لا ذنب له ولا يتحمل أى ضرب.. هكذا سألت نفسى وعزمت ألا اذكر اى شىء لهم حتى لو كلفنى ذلك عمرى نفسه.

قضيت ساعة او اثنتين منذ ان نهضت من نومى العميق.. افكر فى كل شىء واكاد اسأم حتى من الاستفسار عما حدث لحين فتح الباب الذى دخل معه هواء نقى كشف عن فساد الهواء الذى يملأ الحجرة وإذا بظل عريض يقترب تجاهى.. لم أكد ارفع رأسى لاعلى بل لاحظت تقدمه نحوى وحجمه من حجم رجليه العريضتين.

وجدته يجلس بجوارى بينما مازال الباب مفتوحا يجلب معه قليل من النور والهواء.

قال: سيف.. سوف اسألك سؤلا؟!

صمت فاستطرد:

قل لى.. ماذا تعرف عن المحرر؟

صمت فأستطرد:

ألم تقرأها بعد؟.. انا قرأتها بها اشياء جميلة واخرى على النقيض.. انكم تتهمون الشرفاء.

ادركت هدف حديثه فصمت أيضا بينما صاح:

سيف.. هل ستدعنى احدث نفسى؟ يجب ان نتحدث.. فهذا حديث ودى.. غير رسمى.. حديث بين اخوين.

.. وهكذا استمر يسأل بينما انا التزم الصمت الى ان هب واقفا وهو يصرخ:

شوية عيال.. لابد سنعرف من يدفع لكم؟

سوف تعترفون.. حتما ستعترفون.

انصرف وأغلق الباب ليعود المكان إلى ظلامه المبرح وهوائه الملوث.

مرت ساعات قضيتها بين الاغفاء فى النوم المتقطع و الصحيان والاغراق فى التفكير.. شعرت بالعطش شيئا ما.. وقفت ببطء واقتربت تجاه الباب الذى ادركت تجاهه منذ قدوم الضابط.. اخذت اضرب عليه.. حتى فتحت فى الباب الحديد (شراعة) مستديرة أطل علىّ منها وجه ضخم سد كل المنفذ وقال: عاوز إيه؟

قلت له: عطشان؟

قال: ممنوع.

كررت سؤالى: عطشان؟

قال: الميه والطعام ممنوع دخوله عليك بدون اذن من الباشا.

قلت: ارجوك عطشان؟

قال: أرجوك.. ماتودنيش فى داهية.

قلت: عطشان.

سمعته يتمتم وخطواته تبتعد.. ثم عادت لتقترب ثانية. طلب منى الابتعاد من الباب.. ففعلت فأحضر لى (قلة) فيه وضعها خلف الباب ثم انصرف.. ثم عاد يطلب منى بعد ذلك ان اشرب بسرعة.. ففعلت فعاود طلبه بابتعادى عن الباب ثم دخل ليأخذ (القلة) وخرج.. لم تمض دقائق حتى طلبت منه الذهاب للحمام وهنا وجدته يضحك بشدة قائلاً: افعلها فى أى ركن عندك.

وفهمت منه بعد ذلك ان السجون لا يوجد بها دورات مياه ثم عاد ليسألنى عن سبب مجيئى إلى هنا فأكدت له اننى لا أعرف لكنه استمر ناصحًا: يابنى.. امثالنا ليس لهم حول ولا قوة.. واى شوية هواء يطيرونا.

ثم استمر حديثه الودى الىّ.. عرفت انه رجل امى لا يجيد القراءة أو الكتابة وادركت انه بسبب عمله فى الداخلية عرف كيف تمضى الامور فى كل شىء بالبلد وعرفت ايضا ان ابنه الذى هو فى مثل سنى مجند فى الجيش.

استمر الحبس ثلاثة أيام وعرفت انهم تمهلوا فى خروجى حتى تشفى جراحى التى حدثت بسبب الضرب المبرح الذى

كان يفعل الضابط يعاونه بعض المخبرين حتى فقدت الوعى وهنا قاموا بحملى معهم بينما تركوا عاطف الذى لم ينله من الأذى الكثير بسبب انشغالهم بى.

وعرفت بعد خروجى انهم اعتقلوا عشرات الطلاب وكانوا يسألونهم جميعا عن المحرر بعضهم خرج والبعض الاخر مازال قيد الحبس الانفرادى.

كرهت المدينة الجامعية وعزمت الا أقيم فيها بعد الموقف المشين الذى تعرضت له، ذهبت بعد ذلك الى كلية العلوم لملاقاة عاطف الذى ما إن رآنى حتى قدم نحوى فرحا وحضننى حضنا عميقا اشعر كلانا بالدفء.

فكلانا أسرة الآخر فى هذا البلد.

قال لى عاطف ان لديه سيكشن ،سينقضى بعد ساعة يمكننى انتظاره لحين الانتهاء منه.

اردت ان اذهب للكلية.. كلية الحقوق وهناك وجدت عملا رائعا قدمه الطلاب من اجلى ومن اجل ٧ زملاء اخرين حيث قاموا بملء الساحات بلوحات التنديد لاعتقال ثمانية حقوقيين ونظموا اعتصاما احتجاجيا ضد اعتقالنا وربما يكون ذلك هو السبب لخروجى وغيرى.

وهناك كرمنى اصدقائى واحتفوا بى احتفاء عظيما اصبحت بعده وجها مألوفا لجميع زملاء الفرقة الذين يتجاوز عددهم الألف شخص وربما كان ذلك اهم مكاسب هذا الحدث.

اضطررت إلى أن انسحب من وسط زملائى لاعود إلى عاطف فى كليته فوجدته يبحث عنى وفى الطريق تحدثت عن المعتقل وعن الاسئلة التى وجهوها له وعرفت انهم قاموا بإجراءات امن كثيرة فى المدينة بعد هذا الحدث.. وقد سألنى عاطف عن سبب ما حدث فعللت له الامر بأنه مجرد تحريات قد تحدث ضد أى شخص فى مصر وهدأت من روعه بأن ما لا يقتلنى يقوينى على كل الاحوال.

كانت الامتحانات قد اقتربت ورأيت انه من الافضل التركيز على الدراسة والامتحانات.

□□

كانت الامتحانات قد انتهت واظننى قد اجتزتها بشكل جيد رغم عدم تفرغى الكامل لها لكن قبل قضاء الاجازة الصيفية كان يتحتم على زيارة منزل المعلم شيحة الذى وجدته فى المقهى.

صعدت معه لمنزله ..احسبها ارادت تسألنى عن سبب غيابى كل تلك الفترة ..فحسب علمى ان المعلم لم يحدثها بشىء عن سبب غيابى ولذا اقتصرت على حالة السبب الامتحانات.

سألنى المعلم عن تفاصيل الحدث وكانت مريم جالسة بيننا فاضطررت إلى أن اقص كل التفاصيل وبعد لحظات استطعت اختلاس لحظة ذهاب المعلم لعمل شىء ما فقلت: لقد قرأت كتاب شعر اثناء قراءتى مقرراتى الدراسية لقد كان شائقا حقا.

فقالت: وانا كذلك.

قلت مدهوشا: وانت ماذا؟

قالت: قرأت لك شيئا رائعا.

- قرأت لى!!

- نعم لك.. هل نسيت كوم الورق الذى تركته ؟..لقد تصفحته ورقة ورقة واستطعت أن أفهم الموضوع الذى كنت تريد الكتابة فيه.

- وكيف قرأت.. فقط هى مجرد كلمات مبعثرة هنا وهناك؟

- لكننى قرأتها.. وانصحك بكتابة الرواية والقصة، لعلك تجيد فى ذلك.

- وهل تقرأين القصص؟

- نعم.. قرأت قصصا كثيرة.

- يبدو اننى احادث اديبة.. لكن هناك سؤالا ما يشغلنى أود...

قدمت الحاجة أم مريم الشاى وقمت لأصافحها وطلبت منها الجلوس فجلست بعض الوقت لكنها تظاهرت بالانشغال فى امور منزلية ثم انصرفت.

قالت مريم: ما هو سؤالك؟

- ماذا عن تعليمك؟.. فى أى مرحلة أنت من مراحل التعليم؟

كست وجهها ابتسامة خاطفة ثم قالت:

انني في الثانوية العامة.. قسم الادبي، سوف اؤدي الامتحان بعد شهر.

- ياه.. لكنني لم ادرك ذلك ، حيث لم الاحظ وجود كتب أو غيره في يدك؟

- هل مطلوب مني ان اعلق يافطة او ان اتجول في الشقة بين المطبخ والصالون بالكتاب حتى يبدو عليّ انني طالبة ثانوي؟!

ضحك كلانا ثم حضر المعلم وحضرت بعد ذلك ام مريم وتحدثنا حديثا عائليا دونما كلفة حتى طلبت الانصراف.

بينما أقف مستعدا للرحيل احضرت لي كتابا وطلبت مني أخذه بحجة نسياني إياه وكدت أقول لها لم احضره معي لكنني تراجعت ولم أعرف السبب.

اخذت الكتاب ومضيت نحو المدينة الجامعية عساني اجد عاطف قد جهز الحاجيات حتى نستطيع ان نركب قطار العاشرة مساء اليوم، وفعلا وجدت عاطف - كعادته - في انتظاري واسرعنا الى محطة القطار.

كان الطريق الى اقصى صعيد مصر أمرا مرهقا للغاية عبر قطار الدرجة الثالثة.. كان باعة الشاي الذي تعف النفس عن شربه يملئون الطرقات جيئة وذهابا ويشاركهم في الامر باعة البيبسي واللب والفول حتى الجلاب -وهو حلوى تصنع من مخلفات العسل الاسود- لدرجة جعلتني اعتقد

ساخرا انهم اكثر من الركاب ، بالاضافة الى ان الشبابيك كانت تحمل الينا كما هائلا من التراب عبر نوافذها الزجاجية المحطمة اما المقاعد فقد كانت خشبية ضيقة ولا تصلح للجلوس عليها الساعات الطويلة التي سنقضيها فيها.

لكن الامر ليس في مجمله هكذا.. فقفشات وأحاديث الناس حولنا كانت تثير جوا من المرح والضحك.

احسست بعد مضي خمس ساعات مللنا الحديث بعدها أنني بحاجة إلى القراءة لتسلية السفر.. اخرجت الكتاب الذي اعطته لي مريم.. تصفحت أجزاء منه.. حتى سقطت عيني على ورقة مطوية بداخله.. فتحتها وما اشد تأثري بما جاء فيها.

تقول كلمات الورقة:

أخي سيف.. مزق هذه الورقة بعد قراءتها.. بعد التحية.. خشيت عليك السياسة ولم أشأ قولها لك لمرجي منك وانصحك بأن تهتم بمستقبلك فهو اكبر خدمة لمصر ولك ولمن يحبونك.

وللعلم لم اجرؤ.. وما يحق لي.. ان اكتب ابدا لأحد لولا خوفي عليك وارجو ان تتقبل.. م.ش.

الله يامريم.. انها حقا تحبني.. حتى انا اعترف امام نفسي انني ايضا احبها والا فكيف افسر امام نفسي. خفقان قلبي لمشاهدتها وتلهفي لرؤياها.. وكيف تتسنى لي الاقامة هناك عدة مرات ما لم يكن الامر متصلا بالقلب ، وانا الذي كدت

اول مرة ابات فيها خارج المسكن الجامعى اشعر بكارثة أليس هناك فى الادب مايردده الشعراء عن ان الحب يفضل البقاء بالقرب ممن يحب ولكن ياترى هل المعلم شيحة يعرف ذلك؟ ربما.. بل.. لا أدرى.

ياه سرحان كل الوقت ده ياسيف؟

بهذه العبارة كلمنى عاطف فقلت:

مفيش سرحان عاوز انام حبتين ، اقعد بدال منى بالقرب من الشباك.. قوم.

بدلنا المواقع واغمضت عينىّ متظاهرا بالنوم رغم ان ذهنى كان متوهجا اكثر من اى وقت اخر..

اقترب القطار من محطة غبع حمادى التى كان من المقرر النزول بها.. ايقظت عاطف الذى اتكأ نائما بجوارى ملقيا رأسه فوق كتفى ولما توقف القطار نزلنا.. كان الوقت باكرا.. وكانت المدينة متسعة جدا بشكل لم اره من قبل الشوارع، والميادين ، كل شىء يبدو رحبا، الهواء، نظيف، رطب وهو الامر الذى ادركه عاطف ايضا.

أقلتنا سيارة الى العزبة رغم قصر المسافة.. وفى مدخل العزبة افترقنا كل إلى منزله.. وكان اطفال القرية يلتفون حولنا فرحين، لدرجة ان بعضهم اسرع بإخبار والدتى بقدومى التى وجدتها فى انتظارى على عتبة المنزل كما ودعتها، لقد تغيرت ملامحها كثيرا وبدا الشيب يحل محل النضرة والتجاعيد محل الاسترسال.

قدمت نحوى لكننى اسرعت قبلها وجدتها تحضننى بشدة.. وكم هو رائع ان يجد الانسان فى حضن امه الكائن الرائع الوحيد الذى يعطف عليه فى هذا العالم ويهتم بهمومه ويدعو له ليلا بينما هو نائم.. وجدت نفسى اشعر برغبة تملكتنى بالبكاء ولكننى تملكت مشاعرى وان كانت هى لم تستطع التغلب على سيل دموعها.

مضت الاجازة الصيفية دون أن اشعر بها ..عرفت فيها ان صديقى الذى كان يحلم بشراء جرار زراعى مازال يحلم.. ولكن ما حدث بالفعل ان شقيقه استشهد فى مظاهرة كان يسير فيها بطريق الخطأ.

وعرفت ان الكثيرين تركوا مزارعهم او باعوها ليعملوا بالتجارة فما انعش احوالهم المادية اكثر.. وان جهاز التليفزيون اصبح موجودا فى عدة بيوت.

كانت الاجازة مفعمة بالاخبار التى لا اذكرها الان والتى لم يكن حينذاك عندى من الاهتمام ما يسعها.. لقد كانت انظارى تتجه نحو القاهرة.. ماعدا الفرح الشديد الذى انتابنى حين عرفت زواج محمد ابوالعز بفاتن بنت شيخ البلد، عسى ان يكون مصيرى مثله.

فمحمد ابوالعز القروى البسيط امتلك قلبا خلق للعشق.. وأن له قصة حب مع فاتن تصلح رواية يتناقل اخبارها كل عاشقين ان لم يكن حدث ذلك فعلا بل واعتبروها تجسيداحقيقيا لانتصار الحب فى النهاية.

فمحمد الفقير عشق بنت شيخ البلد صاحب الشأن العالى والأراضى الكثيرة التى قد تزيد على ارض العمدة نفسه، وعشقته فاتن بل وقاومت كل رغبة يقحمها بها والدها للزواج من بأناس اثرياء آخرين ورغم عمليات الحبس والتنكيل نجحت فاتن ومحمد فى فرض رأيهما على مجتمع مريض يؤمن بأن البقاء للأثرى.

وقد اختتمت الإجازة بنجاحى، حيث أحضر النتيجة لى احد فراشى الكلية ونجح عاطف ايضا.

اصبحت اعد عدة السفر للقاهرة وكنت قد عقدت العزم على الابتعاد عن النشاط السياسى، يمكننى أن أعبر عن رأيى مع الطلاب المتظاهرين ولكن لماذا أتزعم جماعة؟، قلت لنفسى: عسى أن تكون رسالة مريم، رسالة خير لإنقاذى.

قلت لنفسى وكأننى سعيد: مسكينة مريم، عشقت شخصا هى أكثر استقرارا نفسيا منه.

□□

ودعتنى والدتى وكثير من اهل القرية حينما بدأنا فى الرحيل إلى أن غبت عن انظارهم.

وفى القاهرة ما مكثت يوما واحدا حتى ذهبت فى اليوم التالى إلى مريم حيث شعرت بالدفء يسرى فى جسدى بعدما تركته حين غادرت القرية.

وفى أول لقاء اخبرتها بأننى سأتفرغ للدراسة، وشكرت لها على الرسالة التى اوصلتها إلىّ دون ان تضع نفسها فى

دور الناصح لى، كما قدمت لها قصصا قصيرة استطعت انجازها فى اثناء الاجازة، اما هى فقد كانت خجلى جدا.

لاحظت ان المعلم كان يتركنا كثيرا للحديث حتى اصبح الحديث معها ليس صعبا حتى فى حضور والدها ووالدتها.

طلبت من المعلم التوقف عن اصدار «المحرر» لكنه اكد ان النشرة كانت تصدر فعلا اثناء غيابى.. وأن احمد مسئول الديسك سيتولى امرها وانه سوف يتركها كذلك. ولقد صادفتنى مشكلة - ومعى عاطف طبعا - اننا كنا نقيم فى لوكاندة لحين اعلان اسماء المقبولين فى المدينة الجامعية التى عرفنا أننا من غير المقبولين بها، ولذا أصبح ضروريا البحث عن مسكن، ولا أخفى أننى ارهقت كثيرا فى بحثى عنه، لولا - وبدون قصد - تحدثت فى هذا الشأن أمام المعلم الذى دعانى إلى الإقامة معه فى الشقة الأخرى المغلقة، ولم اجد بدا من القبول.

مر العام سريعا ولا انكر ان هذه السنة اظنها من اجمل سنوات عمرى.. وان الحب اخذ منحى خطيرا، فقد اعتدت مشاهدة مريم كل يوم، واصبحنا وكأننا خطيبان، وأصبح عاطف يعلم كل شىء عن هذا الحب رغم انه دهُش فى البداية من المعرفة الوطيدة التى جمعتنى بتلك العائلة.

وخلال هذا العام اتجهت إلى الأدب وأخذت اتحين فرصة الكتابة للصحف والمجلات.

وهناك نقطة اخرى لا يمكن أن انساها وهى ان مريم فى هذا العام التحقت بكلية الاعلام واصبحت فرصة التلاقى

منفردين داخل الحرم الجامعي اوسع ومرافقتها ذهابا وإيابا أمرا عاديا، وحتى في اثناء الاجازة ارسلت خطابات للمعلم كتتويج للجو الاسرى والامر لايخلو من الحديث عنها فيه.

اما عاطف فقد تطوع بالحديث عن هذا الحب لوالدتى واخذ يزيد من وصفه لكرم عائلتها حتى يقتلع مباركتها التى لم تقدمها بسهولة لأنها تريدنى أن أرتبط بأى فتاة من بنات القرية لكنها ابدت رغبتها فى حصولى على عمل اولا وبعد ذلك سوف تشترى لى الشقة بمبلغ الارض التى أرادت بيعها، لكننى رفضت ذلك.

وفى العام الجامعى الثالث تحدثت مع عاطف بشأن امكان خطبتها فاقترح ان احادثها فى الموضوع اولا لأعرف موقفها وأشار علىّ بقراءة فاتحة تتناسب مع ظروفى المادية أولا.

وفعلا، تمت قراءة الفاتحة واعلن الخبر للجميع وبذلك قدمت تبريرا لكثرة خروجى معها، واخبرنى المعلم بعد ذلك انه لولا معرفته اخلاقى كصعيدى ما سمح لى بالاقامة عنده بل انه اختبرنى عدة مرات وتأكدت لديه اخلاقى، اما انا فقد شكرت له .

□□

مضت اربع سنوات منذ ان قرأت الفاتحة على مريم حدثت اشياء كثيرة خلالها، توفيت عمتى منصورة ثم تلاها عمى حامد بعد عام، وتخرجت انا فى الجامعة بينما عاطف عين معيدا فى الكلية، اما مريم فقد كانت فى طريقها إلى الإنتقال للسنة الدراسية الاخيرة فى كلية الاعلام.

رغم أن احداثا اخرى سياسية كثيرة حدثت أهمها الانتفاضة ضد اتفاقات كامب ديفيد ومقتل السادات بعد ذلك بما خلفه من حملة اعتقالات ضخمة فى صفوف الطلبة وشروخ حضارية واجتماعية نتيجة الانفتاح لدى المواطنين، رغم كل تلك الاحداث الرئيسية - حيث لا أتذكر تفاصيل كثيرة لتلك الفترة المفعمة بالاحداث، وكنت أنأى بنفسى عن السياسة خلالها فإننى الآن لا ألقى بالا لكل تلك الاحداث ما عدا انشغالى بما بعد الدراسة.

واذكر اننى كنت كمن اخذ مخدرا يشغله عما يحيط به، اصبحت انظر إلى الاشياء من حولى بقليل من التعمق، ففهمت ان السبب الرئيسى الذى يجعل الناس تنأى عن ممارسة السياسة هو كون أكل العيش مرا.. كالعلقم.. خاصة حينما تشعر بأن هناك عيونا ترقب عودتك إلى البيت وقلوبا تتلهف إلى رؤياك.

نعم، أدركت ان عواطفنا سلاح آخر موجه نحو صدورنا بعض الاحيان، لكن ما ارحمه سلاح وما اجملها جريمة.

ثمة شىء يحيرنى لكونه خارقا للفهم، انه المعلم شيحة الذى اصبح لفظ «المعلم» له وقع سيىء فى نفسى وقررت ان اناديه بعمى او على الاقل «حاج».

أما الشىء الذى كان يحيرنى فهو بالرغم من انه رجل صاحب مسئوليات وله زوجة تنتظره وابنة تحتمى بأبوته، إلا أنه لا يتردد فى أن يخاطر بالمشاركة فى نشرة

أقل عقوبة لو انكشف أمره السجن ما لم يكن الاغتيال السياسي الذى كان سائدا آنذاك.

ماذا إذن نسمى ذلك ؟ ... لا أدرى .. قد يكون ماضى الاسرة الوطنى التى استشهد منها جده ثم والده فى الحرب .. ربما.

نهاية تلك الفترة كنت كمن يتخلص من كابوس يهدده .. اصبحت اكثر تحررا واصبح الماضى جزءا مشرفا من حياتى وبدلا من اخفائه كان اظهاره اكثر أهمية.

الرئيس الجديد حسنى مبارك تولى الحكم بفتح السجون .. خرج أحمد رفيق المسكن الثانوى من السجن .. تحدثت الصحف علانية بالظلم الذى كنا نكتبه سرا فى المحرر منذ سنوات .. تناولت قصة عائشة وكل عائشة وبدا فى الافق شعاع نور لم تتحدد ملامحه بعد .. وتنفس الناس الصعداء.

هناك أغنية جميلة كنت أرددها كما رددها الكبار والاطفال حددت الافق الجديد الذى ارتسم للناس بعد مقتل السادات واعتبروه ثمارا طبيعية لحركة الشعب الوطنية .. كانت كلمات الأغنية تقول :

ياللى من البحيرة وياللى من آخر الصعيد

سينا رجعت كاملة لينا ومصر اليوم فى عيد

كانت تحث الناس على البحث عن لقمة عيشهم فى مقاطع كثيرة أخرى والابتعاد عن السياسة .. وهو ما فعله الناس فعلا رغم اننى سبقتهم .. والآن بالنسبة لى فالسبب الذى

جعلنى لا اعمل قد زال وليس لدى مورد رزق خاصة اننى لمحت نظرة تعجل لاتخاذ خطوات أخرى اكثر فى موضوع مريم من قبل والدتها.

سافرت الى العزبة للحديث مع والدتى فى أمر المسكن .. وان كان هذا الأمر ثقيلا على كرامتى .. فوالدتى يجب ان تنعم بما اقدمه من أجلها وليس العكس .. لدرجة اننى عدت خالى الوفاض دونما محادثتها .. سوى اننى عرضت عليها ان تقيم معى بعد تدبيرى أمر المسكن لكنها رفضت .. بعد ذلك أدركت ان العمل هو أولى خطواتى فى القاهرة.

تقدمت للتدريب عند أحد المحامين .. لم يكن مشهورا ..بل ربما لا يجد عملا اصلا .. رغم أن لديه مكتبا فخما جدا وموظفات .. وكنت المحامى الوحيد الذى يتدرب لديه وكان اسمه شوكت.

مكثت معه شهرين لكننى تركته بسبب عدم وجود شغل .. ثم انتقلت الى مكتب آخر ثم مكتب غيره .. كلها مكاتب بلا عمل .. بل ان احدهم طلب منى اعطاءه عشرين جنيه شهريا لزوم التدريب!!!

كنت اخرج كل يوم اجوب مكاتب المحامين لايجاد فرصة تدريب حتى تتسنى لى ممارسة المحاماة ولكن بلا فائدة ثم اعود الى الشقة لاجد مريم فى انتظارى تسألنى فى شغف عما فعلت .. كنت اقول لها كل ما يحدث لى واذكر انها مازحتنى بشأن المحامى الذى طلب منى مبلغا شهريا لدرجة انها جعلتنى اضحك.

واستمر الحال هكذا لمدة سنة كاملة ايقنت تماما ان تلك المهنة لم تخلق لى كما اننى لم اخلق لها .. وخلال هذا العام قمت بإعطاء دروس خصوصية لبعض تلاميذ المدارس ثم انتقلت إلى العمل فى مدرسة اعدادية بالحصة .. كانت تدر علىّ دخلا يكفى نفقاتى ويزيد احيانا.

تخرجت مريم فى الكلية وقدمت لها هدية متواضعة نسبيا.

قالت لى مريم ذات يوم بينما كنت احتسى الشاى فى بيتهم:

لماذا لا تجرب نشر قصصك التى تكتبها فى الصحف؟

ـ حاولت لكن بلا فائدة.

حاول مرة أخرى وأخرى حتى وان طلبوا منك عشرين جنيها شهريا.

ضحكنا وقلت : سأحاول.

قالت: غدا سوف اذهب للبحث عن عمل فى صحيفة كبرى ماذا لو جئت معى؟

قلت : سوف اذهب معك.

وبالفعل ذهبنا صباحا لصحيفة العاصمة إحدى كبريات الصحف .. هى لتعمل صحفية وانا لأكتب قصة.

كنت لا أدرى ان هذا المشوار سوف يغير مسار حياتى كلها.

لقد شعرت بالهيبة فى اثناء دخولنا بوابة الصحيفة التى يتدفق منها هواء تكييف بارد ورغم انها شعرت هى ايضا بذلك الا اننى حاولت ان ابدو اكثر شجاعة.

تقدمت نحو موظف الاستقبال طالبا منه مقابلة رئيس التحرير .. اخذ يحملق فى من أسفل لأعلى ثم سألنى عن وجود ميعاد سابق فأجبته بنعم ولا أدرى ايضا لماذا قلت له هذا بينما بدت مريم التى كانت تخلفنى بخطوة .. اكثر شجاعة من ذى قبل.

انتفض الرجل من مقعده ثم سبقنى بخطوات وطلب منى اتباعه ثم توقف طالبا منى اثبات شخصية .. فقدمت له البطاقة الشخصية .. أخذ يتصفحها وقلل من حماسه فى السير وكأنه كان يريد ان يعود إلى مزيد عن الاستفسار لكن الحمد لله لم يفعل.

دخل المكتب بينما طلب منى الانتظار كنت فى تلك اللحظات قلقا بعض الشىء الا انه خرج واعطانا البطاقة واشار علينا بأدب جم الدخول.

داخل المكتب بينما كان يجلس رجل ضخم الجثة لكنه يملأ مكتبه الجميل الهادىء بجسمه بينما يرتدى ملابس أنيقة .. صفراء فى معظمها .. اشار علينا بالجلوس ..جلسنا فى صمت ننتظر ان يبدأ حديثه .. خلص من فعل شىء كان يقلبه بين يديه ثم التفت الينا وقال :

أهلا وسهلا .. تفضلا.

قلت : اننى اكتب قصة وأريد ان تنشر لى اعمالا فى الجريدة .. اما خطيبتى مريم فتريد ان تعمل لديكم فهى خريجة كلية الاعلام - قسم الصحافة.

قال : كل الاقسام مكتظة بالمحررين .. ولا يوجد لدينا مكان شاغر.

صمت قليلا وقد احمرت وجنتاى وكأنه يراقبنا ثم قال مستطردا :

لا بأس .. سوف احاول ان اعطيكما فرصة .. فأنا من مشجعى الشباب .. خاصة اذا كانا مخطوبين.

ضحك ثم ضحكنا معه .. اخرج سيجاره الكوبى وأشعله ثم قال :

إيه رأيكم؟

قلت : فى ماذا ؟!

قال : فى قسم التحقيقات مثلا.

كنت اعتزم ان اخبره بأننى ابحث لها هى فقط عن عمل لكن مريم ادركت ما انتوى قوله واشارت لى بإصبعها كى لا اقول.

قلت : نعم.

قال : اذن .. اذهبا للاستاذ محمد زين .. رئيس القسم.

وقفنا وقد شكرناه بحرارة وكنا فى منتهى السعادة وما إن خرجنا حتى اوضحت لى مريم أن فرصة مثل تلك لن تتكرر لا يمكن تضييعها.

ثم توجهت بعد ذلك نحو الاستاذ محمد زين الذى بحثنا عنه فى كل مكان بالجريدة فلم نجده وعرفنا من أحد المحررين بالقسم انه سيحضر غدا لاجتماع القسم الاسبوعى الذى يحضره عادة رئيس التحرير بنفسه .. كان موعد الاجتماع الثانية عشرة ظهرا.

ذهبنا معا خارج الجريدة بعدما تملكنا شعور انتمائنا إلى الجريدة .. واذكر اننى ذهبت عند بائع الصحف لشراء نسختين من الجريدة .. واحدة لى وأخرى لمريم .. وكنت أود أن اصرخ للناس اننى اعمل بهذه الصحيفة.

وحينما وصلنا إلى المنزل ايضا توجنا احتفاليتنا - طبعا بعد مزيد من القول عن رئيس التحرير وأدبه واناقته وعن حوض الأسماك الزجاجى الذى يملأ حائط الغرفة - بقائمة كبيرة من التحقيقات المقترحة .. وودعتهم على أمل لقاء الغد.

كنت لم اتناول افطارى بعد حينما نادت علىّ أم مريم لتوقظنى .. اسرعت بإرتداء ملابسى وخرجت لاصطحاب مريم التى كانت قد ارتدت ملابسها واسرعنا بالخروج بينما دعتنا أم مريم إلى تناول افطارنا .. فرفضنا.

وفى مقر الجريدة تقابلنا مع محمد زين الذى كان مرتبكا بعض الشىء وحينما لمح أحد المحررين رغبتنا فى السؤال عن السبب اقترب ليخبرنا بأنه يعد لبرنامج الاجتماع .. ثم اردف يقول : انه يكون على تلك الحالة كل موعد اجتماع!!

رفع محمد زين رأسه عن الورق الذى يكتب به ليلقى نظرة على تمام الحضور اعضاء القسم بينما كان يجلس امامنا وبجواره كرسى آخر يبدو انه لرئيس التحرير.

تقدمت انا ومريم نحوه وشرحنا له وجودنا فأشار لنا بالعودة ثانية للجلوس بين الزملاء دون ان ننطق ببنت شفة.

حضر رئيس التحرير فوقف الزملاء ونحن طبعا كما تجرى العادة فى استقباله .. جلس رئيس التحرير ثم نظر فى الحاضرين وكأنه يتفرس وجوههم وكنا قرابة الأشخاص العشرة.. ثم توقف للحظة عند وجهينا عبر نظارته السميكة.

بدأ رئيس التحرير كلامه وكما لم نتوقع اشار بالترحيب لاستقبال قسم التحقيقات زميلا وزميلة جديدين وطلب منا ان نعرف الزملاء اسمينا .. ثم تطرق بعد ذلك للحديث عن خطة القسم الاسبوعية وتقدم كل زميل بما لديه من اقتراح تحقيق صحفى .. وقد لاحظنا انبهار رئيس التحرير والقسم من الافكار التى قدمناها.

وبعد ان انتهى الاجتماع دعانا رئيس القسم إلى الحديث معه بشأن أهمية تنفيذ تلك التحقيقات.

وقد علمنا بعد ذلك ان الافكار التى طرحناها فى الاجتماع كانت كثيرة جدا وشائعة حسب رأى أحد الزملاء الذى وجدته يسعى للتقرب الينا.

نفذنا أول فكرة وقدمناها بعد يومين من الاجتماع لرئيس القسم ووعدناه بأن نقدم له التحقيق الثانى غدا حيث كنا بدأناه ولم ننهه.

كان كل زميلين يعملان معا فى فكرة اقترحاها .. أما أنا فزميلتى كانت محددة سلفا.

قضيت يوما فى ممارسة العمل الصحفى فى شوارع القاهرة وكنت قد تركت مهنة التدريس نهائيا .. وكم كان ممتعا هذا العمل رغم الكد الشديد الذى عدنا إلى المنزل بعده وليس فى طاقتنا الانتظار حتى لتناول الشاى.

وكم كان رائعا ان نجد التحقيق الذى اعددناه منشورا على صفحة كاملة فى الجريدة والشىء الاكثر روعة من ذلك ان نشاهد الناس يقرءونه .. اخذنا نتأمل اسمينا فى الجريدة وكأننا نراهما فى حياتنا لأول مرة.

مضت عدة ايام ونحن فى نشاط لا ينضب .. لكن ثمة شيئا ارقنى كثيرا حيث سمعت وبالمصادفة حينما كنت خارجا من باب الشقة أم مريم تحدثها عن كثرة خروجها معى دون اى ارتباط حقيقى وان الجيران بدأوا يتلغطون بتلك الاحاديث وانها سمعت ذلك بنفسها وطلبت منها ان تحدثنى فى هذا الموضوع بينما مريم كانت تقول لها ان كلام الناس لن ينقطع.

توقفت برهة ..ثم عدت بهدوء دونما جلبة للشقة حيث اننى فضلت مجيئها لاصطحابى بدلا من ذهابى انا كالعادة حتى

اجنب أية نظرة غاضبة لها عن نيتى عقد قرانى عليها بعد شراء الشقة.

□□

كانت قد مرت ثلاثة أعوام منذ مقتل السادات حدث خلالها حدث جسيم حيث احتلت اسرائيل -التى ما لبثت ان وقعت مع مصر اتفاق سلام - الجنوب اللبنانى وقامت باعمال قتل بشعة للمدنيين.

كانت التوقعات تشير الى تحطيم فعلى لاتفاق السلام بسبب هذا العدوان وكان الجميع فى انتظار البيان الرسمى للحكومة ..ولكن البيان جاء محطما للآمال ويكرس كل نصه لنداء المحتل بالرحيل مما اضاف بعدا كان من الصعب القبول به قبل عشرة اعوام مضت فى مجال التضامن العربى - العربى.

والحادث الثانى الذى يقلقنى هو تلك النبرة التى بدت تعترى صوت الحاج شيحة وأم مريم فى تعاملهما معى .. حيث انهما كانا يضيقان علىّ الخناق لسرعة ايجاد حل لموضوع مريم .. ويرددان أن كلام الناس اصبح صعب السيطرة عليه.

قلت ذات يوم لعمى اننى انتظر الحصول على شقة لاتمام عقد القران لكنه وعدنى بأنه سوف يمنحنى الشقة المقابلة حال الاقدام على ذلك.

ذهبت الى عاطف فى مسكنه المفروش الذى قطنه بعدما استقل عنى منذ ثلاث أو اربع سنوات وكان آنذاك لم يناقش بعد رسالة الدكتوراة.

وكعادتى عند الحاجة لمراجعة النفس وكما يفعل هو تحدثنا معا حديثا أراحنى كثيرا وان سبب لى حرجا .. قلت له اقتراح الحاج فوجدته يؤيده حيث انه من حق الحاج التعجل فى مثل تلك الحالات .. نصحنى عاطف بقبول الاقتراح وعرض علىّ إقراضى مبلغ ١٠٠٠ جنيه ادخرها من عمله وقبلتها.

كان عاطف يعلم ان مهنة الصحافة ذات دخل محدود وان كان يبدو الأمر لمن لم يقترب منها عكس ذلك تماما.

وفعلا تحدد الموعد بعد شهرين من الاتفاق لاتمام عقد القران أكون خلالهما دبرت كافة المصروفات اللازمة،

□□

كان موعد عقد القران يقترب .. وكان القلق يزداد رويدا رويدا .. لم يكن امامى أية بادرة للحل .. إذ ليس من المعقول ان اجمع من الأموال فى القاهرة خلال شهرين مالم اجمعه خلال اربع سنوات مضت وربما سبب لى ذلك الأمر اكتئابا فى العمل لاحظه الزملاء ومريم ايضا.

لكن ثمة أمرا مهما حدث ربما قلب الاحداث كلها رأسا على عقب .. حيث اننى اصبحت فى هذه الايام من الاسماء العامة متوسطة الشهرة .. وكان يكفى ان اعطى كارتا لاى

شخص لتيسير أى مطلب له من بيروقراطية المكاتب التى فشت فى المجتمع .. وكثيرا ما خدمت أناسا جاءوا من القرية لهذا الغرض .. ونظرا لهذه الشهرة كان من اليسير على من يتطلع للوصول لى تحقيق ذلك.

فى ذات يوم جاءنى تليفون على مكتبى فى الجريدة كان المتكلم شخصا قوى الصوت قال :

الاستاذ سيف منصور.

- نعم

- هل تذكرنى.

- من ؟

- أحمد عبد الرحمن.

- أحمد عبد الرحمن .. أحمد عبد الرحمن.

- أحمد عبد الرحمن .. مدرس الجامعة

- آه .. اتذكرك .. كيف انساك .. هذه فرصة طيبة جدا لى.

- اشكرك .. ولكن كيف حالك؟

- حمدا لله كما ترى .. وماذا عنك؟

- الحمد لله أيضا .. أريد التحدث معك.

- فى أى وقت تشاء.

- أين؟

- فى الجريدة مثلا أو كما ترى.

- ليكن فى كافيتريا الأمل .. الساعة الثانية ظهر غد.

- وهو كذلك .. إلى اللقاء.

فى اليوم التالى .. ذهبت الى الكافيتريا .. كنت قلقا ربما لكرهى استرجاع الماضى وجدت الدكتور جالسا بمفرده على احدى الترابيزات .. فى البداية لم اتعرف إليه لكنه هو استطاع التعرف إلىّ .. اشار بيده للجلوس .. صافحته .. بشدة وجلست أمامه .. قال : استاذ سيف .. تحيتى اليك .. اننى فى شديدة الحاجة اليك.

قلت : تفضل : لن ابخل عن استاذى بالخدمة .. ان كنت استطيع اداءها.

استطرد قائلا : ابحث عن عمل.

قلت مدهوشا : تبحث عن عمل !! وماذا عن الجامعة.

قال : لقد فصلونى منها تأديبيا.

قلت : لماذا؟

قال : لقد اتهمونى بعمل نشرة للمحرر التى كنت تقوم أنت بعملها.

قلت : المحرر .. نعم انا كنت اقوم بإصدارها ولا شأن لك بها .. بل ربما حتى لم تصدرها أو تكتب فيها قط .

قال : شكرا .. هذا ما أردته منك.

هب منصرفا وسط دهشتى .. ثم بعد ذلك اقترب نحوى شخصان سألانى عن اسمى فأجبتهما .. طلبا منى الانصراف معهما بهدوء .. سألتهما عن هويتهما فلم يجيبا .. وركبت

معهما سيارة ذات سبعة مقاعد .. دهشت حينما وجدت الدكتور أحمد عبد الرحمن يجلس فى المقعد الامامى وبجواره شخص آخر لا أعرفه.

كررت سؤالى الى الدكتور فلم يجب ايضا بينما نكس وجهه الى اسفل ولمحت دمعة كبيرة تبرق فى نهاية جفنه.

لم أحاول معاودة السؤال .. صمت لأعرف مصيرى معهم فى وقته.

وقفت السيارة فى الطريق وهنا تم ربط عينى بلفافة سوداء ثم لفافة أخرى لا اعرف لونها ثم نزلنا من السيارة وتم اقتيادنا لسيارة أخرى يبدو انها نصف نقل .. بعد ذلك نزلنا من السيارة ثم مشينا خطوات واعتلينا سلما صغيرا .. اصوات صرخات هافتة آخذة فى الزيادة حتى صارت تملأ الدنيا حولى .. كان يبدو انه صوت لإناس يعذبون .. قذفوا بنا داخل حجرة .. رائحتها ودرجة سخونة هوائها اظهرت لى مدى قذارتها .. ثم بعد ذلك حضر احدهم لفك رباط عينى.

المفاجأة .. كان الذى يجلس معى فى الحجرة هو الدكتور أحمد عبد الرحمن .. صرخت فيه وسببته بألفاظ ما كانت من قاموس ألفاظى .. لكنى وعلى غير المتوقع وجدته يجهش بالبكاء وكأنه يصدق على توبيخى له.

ظننت انه سيحاول التبرير فقلت :

خسارة ان يسقط من هم مثلك يادكتور .. خسارة حقيقية

ان تعلمنا مالا نفعله ولا تطبقه.

أخذت أوبخه كثيرا رغم ان الأمر بدا صعبا علىّ.

لحظات وجاء احدهم لمناداته وتركنى وحدى فى الغرفة.

كانت نظراته على قدر كبير من الاستحياء بينما كان يسير متثاقل الخطى.

تحقيق شخصية

لم تلبث ان تمر ساعات قليلة من إلقائى فى الحبس .. كانت اصوات الصراخ التى اسمعها تنقطع ثم تعود من جديد .. ياله من موقف مرعب مقزز .. كاد التفكير يأكل ذهنى .. لماذا فعل الدكتور فعلته؟ وهل يمكن ان يبيع الناس مبادئهم بتلك السهولة؟

لا أدرى لماذا فعل الدكتور ذلك؟

لكن ثمة سؤالا كان يجب ان يقدم على كل تلك الاسئلة ..هل فعلا كانت المحرر جريمة؟

سمعت صوت فتح باب الحبس .. جاء أحدهم وقال

قوم .. سعادة .. الباشا عاوزك؟!!

ثم مسكنى من ياقة قميصى لولا اننى قذفت بيده فاستجاب .. فسرنا معا .. وهناك فى مكتب مهيب للغاية كان ينتظرنى شخص بملابسه الميرى التى علمت من الدبابير التى عليها انه لواء .. كان طويل القامة.

طلب منى الجلوس وتعامل معى بأدب .. قال :

شيء مؤسف ان نجد صحفيا فى مثل موقفك.

قلت : وما جريمتى؟

قال : لا نريدك ان تسألنا .. إنما نريدك ان تقص أنت لنا.

ـ أقص ماذا؟

ـ من الذى مولكم؟

ـ يمول من ؟

ـ لا نريد مزيدا من اللف والدوران .. نحب الصراحة .. ولكننى سوف اساعدك على الحديث.

ـ ليس لدى ما أقوله عن شيء لا أعرفه.

ـ سوف يكون لديك حينما تحضر لك والدتك.

لم أدر ماذا فعلت .. ربما صرخت أو ارتفع صوتى أقول :

أمى .. ما شأنها .. ابعدوا عنها.

فتح الباب ودخلت منه أمى .. أردت ان اقترب منها لاحضنها لولا ان احدهم جذبها ثانية خارج الباب واغلقه خلفه.

مكثت اصرخ ولا اتذكر أى شيء آخر حدث الا وأنا ملقى فى الحجرة المظلمة القذرة .. أكلت الهواجس أم رأسى .. ترى ماذا يفعلون بأمى الآن هؤلاء الجبناء؟!

هل ستلقى مصير عائشة .. عائشة.

لكنها ليست عائشة .. ليست عائشة ايها الجبناء.

ثم انهرت على مايبدو ثانية ولم أشعر بعودة الوعى الا والطبيب جالس بجوارى فى غرفة على مايبدو انها تابعة لنفس المكان الذى أحبس فيه.

جاء الىّ فى الحجرة التى أرقد فيها نفس الضابط الذى كان يستجوبنى.

قال : هل يكفى هذا التعرف؟

قلت : وانا امالك اعصابى يبدو من أثر حقنة أخذتها :

صدقنى .. أنا لا أعرف عما تتحدث؟!

قال : هل تعرف جماعة «التحرير»؟

قلت : المحرر كنت اصدرها ايام الجامعة وأنا أعترف بذلك؟

قال : رائع .. يبدو انك ستتعاون معنا .. ثم ماذا بعد؟

قلت : لا شيء.

قال : وماذا عن جماعة التحرير؟

قلت : يجب ان تكون اكثر صراحة كما بدأت معى الحوار.

قلت : لا أعرفها.

قال : قل لى لماذا تكفرون الناس؟

قلت : أكفر الناس .. أنا!!

قال : ليس وحدك .. بل معك أعضاء الجماعة التى سوف تذكر لنا اسماءهم فردا فردا.

قلت : هذا جنون .. أتذكر ماذا عن ماذا؟ لا أدرى شيء؟

قال : كيف دبرتم حادث البرج؟ كيف تعاون معك الشيخ حسان وما هى أوجه تعاونه ؟ وما هى خططكم؟ وكيف تمولون؟

قلت : هذا جنون حقا .. انا صحفى .. حتما أنتم مخطئون.

قال : احفظ أدبك واعترف .. وإلا ....

أردت الحديث ثم صمت واستطرد :

لا تظن انك سوف تتستر بالعمل الصحفى على اعمالك الإرهابية.

قلت : مقاطعا :

إرهابية ..

استطرد :

الفلكة والعصا المكهربة لا تفرق بين صحفى وسواق تاكسى .. ولذلك سوف نوجه لك تهمة محاولة قلب نظام الحكم بالقوة والقيام بأحداث عنف وترويع الآمنين والدعوة إلى نشر افكار من شأنها تقويض سلطة الدولة.

- ياه .. كل تلك التهم على شيء لا أعرفه؟

- لا .. تعرفه .. لقد وجدنا بطاقتك الصحفية فى موقع حادث البرج.

- آه .. لقد فقدت منى.

- وهل أبلغت الشرطة بذلك؟

- لا .

- وكذلك ماذا عن اعتراف الدكتور أحمد عبد الرحمن؟

- كان اعترافى له عن المحرر وليس جماعة التحرير وأنا لا انكر.

- لا فرق .. الكثير ممن ينتسبون للمحرر ينتسبون لجماعة التحرير.

- لكن المحرر كانت اشتراكية .. قلتم عن اعضائها أنهم كفار أما جماعة التحرير فيبدو انها اسلامية لإناس قلتم عنهم إنهم ارهابيون.

- لا يهم ذلك هؤلاء يحترفون التفكير.

- كيف ؟ هى التفكير اصبح عندكم حرفة؟

- نعم .. قل لنفسك .. كنت شيوعيا واصبحت ارهابيا.

- ماذا اقول .. كتاباتى فى المحرر لم تكن تدعو إلى الشيوعية بقدر ما تدعو إلى المساواة والعدل .. وكتاباتى العلنية فى العاصمة ليس فيها ما يدعو أو يحرض على الارهاب .. فهى من فرط تفاهتها - مع الأسف - خالية من كل فكرة هدامة أو بناءة .. إنكم تفسرون الاشياء ومنها الصحافة كما يحلو لكم ودائما تبحثون عن القربان .. مثلما تفعل أية فاشية!!!

واظنكم لا ترتكبون جرما فى حقى بقدر ارتكابكم جرما فى حق المجتمع والصحافة .. كما أن الصحفيين فى الخارج لن يسكتوا.

قال : نعم لن يسكتوا.. ونحن لا نهابهم .. فمعظمهم يأتمر بأوامرنا .. ولكن من سينبئهم؟!!

ـ ماذا تقصد ؟ .. تقصد ...

مقاطعا : نعم .. اختطفناك وقد تمكث معنا مدة طويلة أو قصيرة حسب شطارتك .. وتذكر ان حوادث السيارات تملأ البلد وهى لا تفرق بين الصحفى وسواق التاكسى كما قلت لك من قبل.

ـ كل هذا الاجرام فى حقى!!!

منكم لله فى امرى ولكن ماذا عن والدتى؟

ـ سوف نطلق سراحها حالما تتعاون معنا .

ـ وكيف اتعاون معكم؟

ـ تعترف امام المحكمة بعد ما نقرر عرضك عليها.

وسوف نساعدك على الاعتراف ان كنت قد نسيت.

تراجع الضابط خطوات ثم احضر من مكتبه دوسيها أسود .. اخرج منه ورقة صفراء وقدمها لى وقال :

اقرأ .. هذا فقط ما سوف تقوله.

التفت فى اندهاش تجاه الورقة واخذت اتصفح ما بها مرت لحظة صمت رهيبة وقد رعبت مما جاء بالورقة .. حيث

ارادونى ان اعترف بعشرة اشخاص شاركوا فى تدبير عملية البرج وانهم ـ وأنا معهم ـ كنا ننوى القيام بأعمال تدميرية وتخريبية أخرى ومنها قلب نظام الحكم.

صرخت بقوة : هذه التهم كفيلة بإعدامى واعدامهم معى.

ـ أنا لا اعرفهم.

واضفت : أنا لا اشترك فى مهمة قذرة كتلك.

ثم بعد ذلك لم اشعر بشىء سوى سريان تيار كهربائى جبار فى جسدى .. وبعدما افقت .. كان مازال الضابط يقف فى مكانه قال :

هل ستعترف الآن ؟ سوف نقف بجوارك وسوف نحل لك أية مشكلات تعيشها بعد مغادرة المكتب.

قلت : اقتلونى إن ما تفعلوه هو الارهاب بعينه وهو الكفر بعينه.

قال : اذن .. هذا دليل واضح ضدك .. انك تكفر الناس.

قلت : ان كان الايمان ان اشهد زورا ضد إناس ابرياء فإننى كافر.

قال وهو يبتسم ابتسامة بلهاء .. لا فائدة منك .. سوف تعلق على الفلكة لحين الاعتراف وعليك أن تختار بينها وبين الورقة الصفراء.

قلت : افعلوا ما شئتم.. فدولة الظلم ساعة.

صرخ الضابط مناديا لحارسين بالخارج وتقدم نحوى ليركلنى برجله وقال يأمرهم:ـ

خذوه نحو غرفة التأديب.. أريدك يا مختار ان تهتم به لحين يقرر اخذ الورقة الصفراء.

جذبنى الحارسان من فوق مقعدى بقوة للخارج.. وفى حجرة يبدو أنها فى البدروم.. حيث نزلنا السلالم لأسفل القوابى.. ثم انضم اليهم شخصان آخران وقد رجلىّ على الفلكة وتناوبوا جميعا ضربى بعصا خشبية على قدمىّ.. حتى فقدت الوعى.

ولما استرجعت وعيى ثانية.. كانت رجلاى متورمتين وملابسى متسخة بشدة.

نظر احدهم من فتحة الباب الحديدى الذى بالكاد كنت ألمحه.. حتى عادوا مرة أخرى.

فكوا رباط رجلى.. احدهم يقول لنعلقه من رجليه حتى يسترد قوته.

كنت اتمتم (حاموت .. حاموت) لكننى سمعت احدهم يضحك ويقول: ياريت.. كنت حتستريح.. لكن موش حتموت قبل ما تعترف.

.. ثم علقونى من رجلى واخذوا بالقرب منى يتسامرون ويتحدثون ويبدو أنهم كانوا يعدون شايا لتناوله عبر سخان صغير كنت اسمع صوت اندفاع الكيروسين منه.

وبعد ذلك غبت عن الوعى..

ولما افقت ثانية كنت لا ادرى اين موقع رجلى أو يدى.. بل أى موقع لقطعة من جسدى بداخلى.. إلا أننى كنت

استشعر الحياة من خلال حاستين هما السمع و التفكير حتى حاسة التفكير يبدو أنها كانت فى طريقها للزوال.

قال احدهم- لنتركه اليوم ممددا على الأرض ليستريح وعليك - اشار للآخر - مراقبة حالته.

مضت عدة أيام كان تعذيبى يقل تدريجيا يوم بعد يوم كما احضروا طبيبا لعلاج الالتهابات الشديدة التى أصابة كل جزء فى جسدى لدرجة اننى حينما استطعت الرؤية شاهدت رجلى وقد تضاعف حجمها مرة أخرى، ولما عادت إلىّ القدرة على التوجع شعرت وكأنهم انتزعو الجلد من فوق عظامى ثم بدأوا يطرقون على العظام بآلات ذات سنون، أما ذقنى فقد شاهدته بعينى.

قال أحدهم يجلس بجوارى يتناول الشاى:

يا بنى، هنا الناس يموتون ولا يوجد من يسأل عنهم، كفاك عذابا، وافعل ما يريدون.

كنت أود الاحتداد لكننى لم أقو على الكلام ثم واصل يقول نحن مأمورين فيما نفعله فيك، حسبهم لله !!!

وقبل أن يكمل حديثه وجدته ينتفض ويدس كوب الشاى اسفل كومة اخشاب مهملة ويصيح واقفا : تمام يا فندم.

كان القادم هو الضابط الذى قابلته فى المكتب حيث قال موجها كلامه للمخبر:

لم يعترف حتى الآن؟!

رد المخبر: سوف يعترف يا باشا إلى غد.

قال الضابط: لا يمكننا الانتظار حتى الغد إن لم يعترف بما فى الورقة فسوف تقضون سهرة جميلة، وربما مقرفة مع سيدة عجوز الليلة، وغدا سوف نذيقكم طعم النوم مع البنات الجميلات الصغيرات.

قال هازئا: سوف تقرأ له تلك ـ مشيرا لورقة بيده ـ اتليها بالتشكيل والفصلات ونحن سوف نكافئه بتخفيف عقوبته بعد الشهادة التى ستكون الأسبوع القادم.. فأوراقه فعلا حولت للنيابة.

كنت اتمتم بالدعاء على الضابط والدولة، لكن مازلت لا أقوى على الكلام.

فانصرف الضابط بينما عاود المخبر الحديث يقول:

ما عليك سوى أن تتكلم بتلك الكلمات وتعفى نفسك ووالدتك واختك من الاغتصاب.

كان يقصد الضابط «مريم» تأملت مليا فى كلامه ثم أشرت عليه بيدى ليعطينى الورقة التى ما أن نظرت إليها حتى بصقت عليها، وأخذت أقراءها.

ـ قاطعنى المخبر يقول:

الشوارع برة بايظة خالص.. الأمن المركزى سدها ويبدو أن الجيش حيتدخل.

لم أبال بما كان يقول، ورحت أردد: حسبى الله ونعم الوكيل، يا منتقم ، يا جبار، يا ذا المجد والجلال، لنا عندك

أمنية، هى عندنا معجزة وعندك منجزة، اللهم هنّا وهانت علينا انفسنا بيد عباد لك لا يعبدونك، وقلوب خلقتها صارت فاجرة».

بينما قال المخبر: يا بنى خلص نفسك، احنا حنقول للباشا انك تبت، حاكم اللى بيدخلوا هنا إما يتوبو واما بموتوا.

□□

كنت قد تماثلت للشفاء، وكان جل تفكيرى تلك الأوقات فى أمى هل تركوها حقا؟ وهل سيحضرون مريم أيضًا؟

ولا أذكر ما السبب الذى جعلنى اتذكر الدكتور أحمد عبدالرحمن.. ربما لأنه هو الذى احضرنى إلى هناك.. عموما عرفت السبب الذى جعله يفعل ما فعل لعله معذور .

لكننى سألت الضابط عن والدتى وعن مريم فقال: لقد اطلقت سراح أمك أما مريم فلم تعرف بالأمر بل تقدمت ببلاغ للشرطة بتغيبك.. وعلى كل يمكننى احضارهما أن كنت تنوى التراجع.

فى قراره نفسى لم أكن انتوى التراجع حتى اتخلص من هذا العذاب الذى انتشلنى على غرة لاحضانه الملتهبة.

وقفت فى المحكمة لأدلى بشهادتى .. وكان القضاة عسكريين فى معظمهم وأذكر أننى قبلما يوجه لى السؤال أخذت اتلوا الكلام المكتوب فى الورقة الصفراء.

كانت الجلسة سرية ولم يتواجد بها صحفيين اطلاقا والغريب أن القاضى اكتفى بسماع نصف الشهادة ودونما ان

يوجه لي سؤاله.. لتنفض المحاكمة للتداول وبعد ذلك جاء الحكم بسجني خمسة سنوات وإعدام ثلاثة غيابيا وأحكام ما بين خمسة إلى خمسة عشرة لستة أخرين.

نقلوني بعد ذلك لمكان آخر وعنبر جديدة كان به ما بين ٢٠- ٢٥ سجينا. وكانوا يجعلوننا نقوم بمسح الأرض وأعمال شاقة مرهقة..

□□

مضت الآن ما تقارب من أربعة سنوات عقوبة في جريمة لم ارتكبها.. سمعت خلالها أن حمدى رفيق المدرسة الذى اعتقل وأطلق سراحه منذ ٦ سنوات أصبح رئيس حزب وأنه يهاجم الإرهابيين والغريب أنه كتب يهاجمني بقوله أنه لاحظ ميولى الإجرامية منذ أن عرفني في الصغر ولذلك كان يفر مني!!!.

وعرفت أن شوكت لطفى المحامى أسس منظمة للدفاع عن حقوق الإنسان تهدف لإقامة حكم ذاتى لأقباط مصر وأن مريم التى لم تزرنى سوى مرة واحدة قد تزوجت من صديق لها في العمل، كما توفيت والدتى من فرط حزنها.

آه يا بيتنا الخاوى.. آه يا أمى المكلومة.. ليس لى ذنب وليس لك ذنب.. تفرقنا، انقطع ذلك الشريان الذى يصل بيني وبين الدفء.. انقطع بلا رجعة.

كنت أريد أن احتضنك قبل أن أموت.. فذهبت إلى السكينة قبلى دونما اراك ودونما تريني.. لمن أشكو بعد

خروجى ضياعى؟.. لمن اشكو هجر مريم لى وجفائها؟! من يسمع لى ومن لا أحرج من البكاء أمامه .

مسكينة يا أمى.. لابد أنك تعذبتى حتى الثمالة قبل الموت وذقتى حرقة الفراق وأنت تفتقدينا واحد تلو الآخر.. عمتى وخالى وأبى وأنا.. لكنما هناك بصيص نور يلوح فى الأفق. ألمحة واحسه يقشع الظلام حتى يجليه وأن كان الكثيرون لا يرونه ، ألمح عصرا قادما جديدا.. الإنسان فيه من ذهب وما عداه من خشب.

□□

قلت أحدثه بينما كنا متكئين استعدادا للنوم: هذه حكايتى منذ البداية.. يا باشمهندس حسين.

قال وتنهيدة طويلة تخرج من جوفه:

ياه.. كل هذه الحكاية انت بطلها.

قلت : نعم.. بطل من ورق!!!!

قال وقد بدأ كأنه استمتع بالحكاية مستفسرًا:

ماذا عن عاطف وعن الدكتور؟

ـ عاطف.. يزرونى اسبوعيا.. أن موعد زيارته غدا.

لقد حصل على الدكتوراة العام الماضى.

أما الدكتور أحمد عبدالرحمن فقد أصبح من كبار المتحدثين عن الحرية وعنى.

ـ عنك؟

- نعم.. أنه يشعر بالذنب ولكننى أعذره فانا فعلت مثله.

- وماذا تنوى أن تفعل؟

- لا شيء.. لدى خطط للسفر خارج الوطن.. سمعت حينما كنت أعمل بالصحافة أن هناك مجالا واسعا لها في دول الخليج.

- لكن .. هل ستجد مكانا لك بين الأمريكان الذين يسيطرون هناك على كل شيء.

ضحكت من براءة البشمهندس حسن في سؤاله فالأمريكان لا ينظرون إلى الصغار امثالى.

- قلت لك أننى اشعرب ببصيص نور قادم.. هل نسيت؟

- لا .. لم أنس.. لكننى أود منك كتابة تلك القصة.. قصة حياتك.. فهى مليئة بالغموض والإصرار ،إنها تعبير عن ارتباط الإنسان العادى بالسياسة العامة، فربما تكتبها بشكل جيد، ولدى ناشر اعرفة سيساعدك أكثرإن ذهبت إليه .

- سأحاول.. سأبدًا من الغد..

- لا فليكن بعد خروجك الاسبوع القادم ولتسميها «الدوامة»

- لا .. سوف أطلق عليها اسم فكرت فيه منذ يومين.. فما رأيك فى اسم «زمن السقوط».

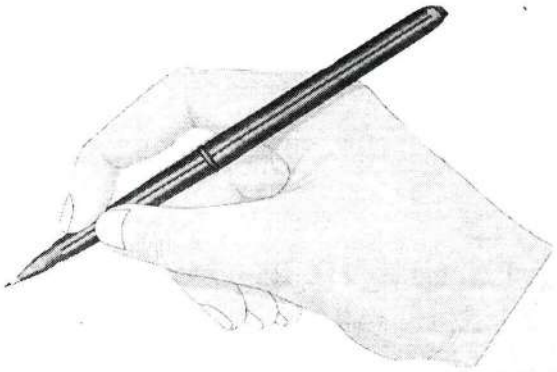

أقاصيص قصيرة

زيارة

كنت اجلس على مكتبى أؤدى بعض الأعمال المكتبية.. دق جرس التليفون

- ألو... من ؟

- هبة

- من تكون هبة

- تلك التى اسقطتها من ذاكرتك

- لكننى لا اتذكرك.

- لكنك ستتذكرنى حينما تراني.

- وأين سأراك؟

- فى أى مكان تريد -

- إذن فى مكتبى غدا وقت الظهيرة وخذى عنوانى.

- لا .. عنوانك معى.. فأنا اعرف كل شيء عنك.

- حسنا.

.. ظللت لساعات افكر فيمن تكون هبة..ربما قارئة لكتبى.. أو زميلة دراسة.. ربما.. اخرجت اجندة التليفونات عسى أن اعثر على أى شيء يدل عليها.. لكن الاسم لم يكن موجودا اساسا.. عموما غدا سأعرفها.

***

كنت فى مكتبى حينما فتحت سكرتيرة المكتب الباب لتخبرنى أن سيدة تبلغ الأربعين تريد مقابلتى وحين سألتها عن اسمها لم تجب.. قلت ادخليها.. كنت قد نسيت مكالمة الأمس.

دخلت غرفة المكتب بخطواتها البطيئة تتحسس كل معالم الغرفة.. كانت مندهشة حيث جلست أمامى صامتة تحملق فى كل معالم شكلى.. كانت تقاسيم وجهها مألوفة لى محفورة فى

ذهنى.. لكنى لا أدرى من هى؟
ولماذا هى؟
طالت فترة الصمت .. فقلت:
- اهلاً وسهلاً.. أى أوامر.
- لا شىء.. فقط جئت لرؤيتك بعدما حصلت على بياناتك وقرأت كتابك الأخير «على الجانب الآخر».. لقد كان رائعًا يا «زوربا»و....
.. استمرت فى الحديث دون توقف لكننى توقفت عند كلمة «زوربا» لقد اطلقتها علىّ أول فتاة تعرفت عليها منذ ثلاثين عامًا مضت.. كانت أول فتاة احببتها من كل اعماقى وشعورى ولا شعورى.. ولكن سنة الوجود لسيطرة رأس المال حالت دونها.
عدت احملق أكثر فأكثر فى كل ملامحها وارجعها نحو ثلاثين عاما للخلف.. صرخت إذن أنت هبة حسنى.
نعم.. أنا هبة التى وصفتها بالخيانة فى كتابك هبة التى احتكمت إلى منطق العقل عن منطق القلب. هبة التى حطمت قلب عشيقها وقلبها أيضًا لتركب الكاديلات وتحمل الموبايل فى ضيافة عجوز ثرى شبهته بالكلب الارمنتى فى قصتك..
اغرورقت عيناها وانهارت باكية.. بينما قمت من مكتبى لأجلس بجوارها.
قلت : الشخصية التى فى قصتى هى سلوى.
- وما الفرق «هبة مثل سلوى» شخصية واحدة حكمت عليها من جانب واحد.
وجعلت من نفسك القاضى والشاكى والحكم يصدر غيابيا.
قلت : لكنك مذنبة.
- نعم: مذنبة ولكن أين حبك أنت؟

- حبى.. تتحدثين عن حبى.. وأنا الذى لم أعرف حبا أقوى من حبى لك.. كنت فى مخيلتى هواء استنشقه وأموت بدونه.. كنت ظلا أسير فيه وروحا استمد منه وعيى.. لكنك كسرتى قلبى ومضيتِ.. رضيتِ بأقرب عارض يوفر لك راحة دون أن تنظرى خلفك.
اخرجت منديلا لأجفف دموعى بينما قالت لقد تزوجت لكى أوفر حظا أوفر لاخوتى الصغار ووالدى - رحمه الله - الذى اقعده الهم والدين.. سوف أكون انانية لورفضت هذا الزوج الذى وعدنا بحياة مرفهة لى ولأخوتى.. كان قلبى يتحطم ولكن من سيمد لاخوتى يده.. هل أتركهم يتسولون فى نظير حب طويل الأجل.. قلبى يتحطم لكنه سيسعد قلوبا أخرى حولى.. كان لابد من التضحية من أجل أسرتى
ربت بيدى على كتفها وقلت لها:
ليس عليك.. كيف تعيشين الآن.
- لدى بنتان وولد وكلهم متزوجون. أما زوجى فقد توفى منذ عامين.. لقد كان طيب الطبع.. عطوفا لأقصى مدى.. وماذا عنك أنت؟!
- متشابه تاما حالنا.. بنتان وولدان متزوجون أما والدتهم فقد توفيت آثر حادث سيارة.. كانت أيضا كاتبة .. أما أنا فقد حققت ما ترينه عبر السنوات الطويلة الماضية وأصبحت قاصا لا تخلو مكتبة من رواياتى.
.. استمر الحديث طويلا.. حتى طرق الباب.. ذهبت للجلوس إلى مكتبى ودخلت السكرتيرة تخبرنى بوجود ضيوف فى الخارج فقلت لها أدخليهم بعد عدة دقائق.
صافحتها واخذت منها وعدا أن نتلاقى لنكمل قصة الحب التى بدأناها منذ ثلاثين عامًا.
فعل خلالها الزمان ما فعل.

مقارنة

في صغره ..كان يشاهد ذلك الطفل المهندم ذى الشعر النظيف يقبض بين يديه عادة قطعة من الحلوى ..ذات مرة وقعت منه فبكى .

قام رجل بدين ليلتقطها له ويخفف من روعه ..إلا أن الطفل استمر فى البكاء حتى احضروا له غيرها.

أما هو فهدهد صدر أمه راقسا برجليه الصغيرتين طالبا تلك الحلوى .. لكنها لم تكن تعيره بالا .. أشار باصبعه إلى قطعة الحلوى التى وقعت من الطفل المهندم الذى أدرك رغبته فأصر على أخذها من فوق الأرض ليلقيها بعيدا ..

أما أمه فقد حرصت على الاستدارة لتجنب ابنها الضيم .. وحين بكى .. قصدت الانشغال بالحديث مع سيدة بدينة بجوارها .

وفى المدرسة وقف هذا الطالب صامتا أمام المدرس حينما طلب منه الاجابة عن سؤال ..لما فشل طلب المدرس منه الجلوس وأثنى عليه!!

لكن حينما وقف هو أمام المدرس ولم يستطع الاجابة .. ضربه على يديه بعصا خشبية وهزىء من اتساخ ملابسه فضحك الجميع ، بعض الاثرياء الذين شاهدوا نهمه للمال قالوا له ان المال ليس مصدرا للسعادة ، لكنه كان يرى ـ على النقيض ـ أن الفقر هو وطن البؤس.

تذكر تلك اللحظات بينما كان يجلس القرفصاء فى زنزانته وكان ضابط المباحث ذلك الطفل المهندم .

من حواديت الاطفال

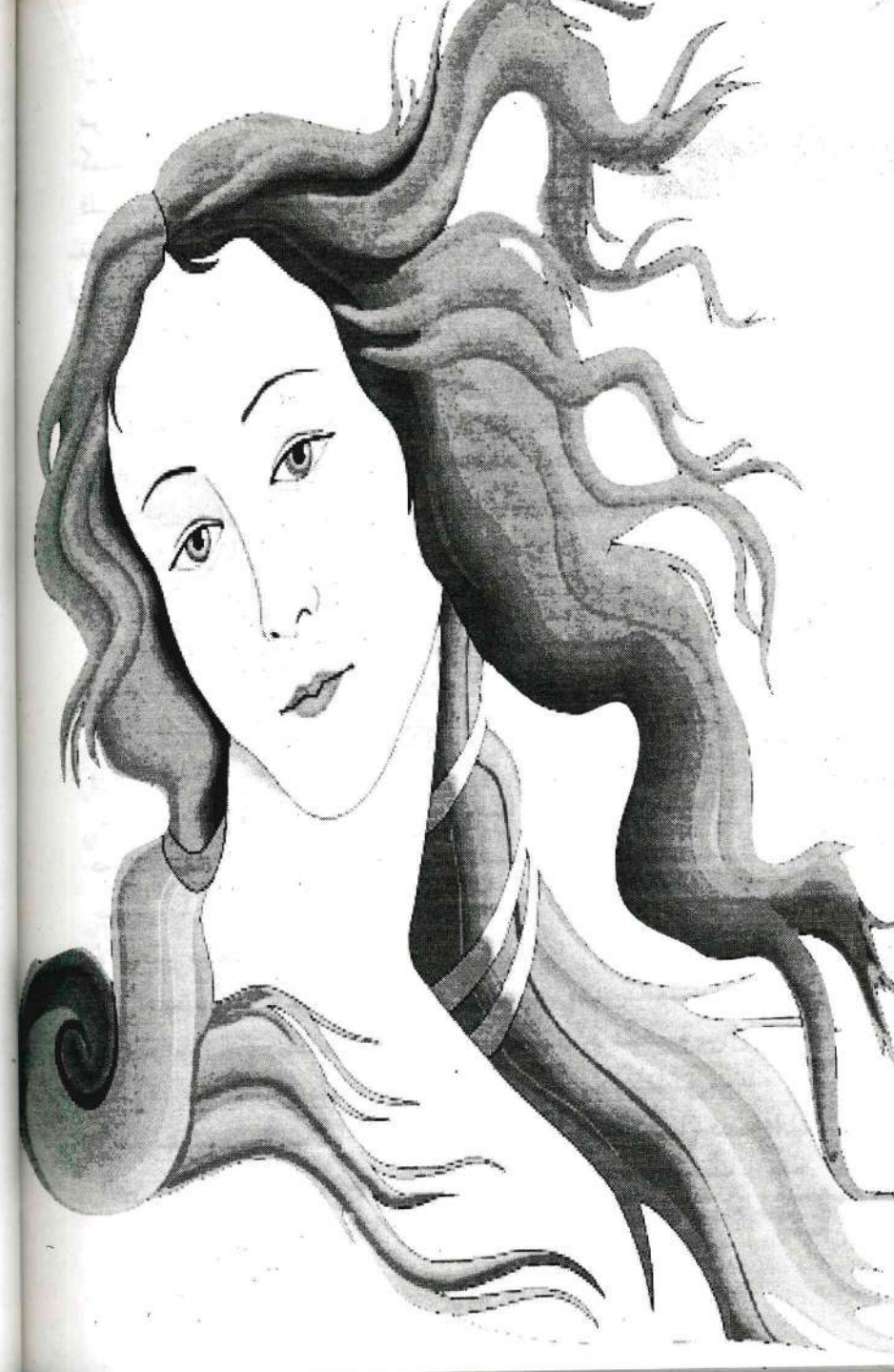

◻ الربيع

حذروه من الطريق إليها

القصر تحرسه كلاب تنهش عظامك البارزة .. وأسلاك شائكة تغلف جدرانه الجرانيتية العالية.. قالوا.. وقالوا..

لكن لم تعلق في تجاويف صدره غير مقولتها آخر مرة رأها تحتضن اطواقا حديدية:

(حتما سأعود حينما تزدهر حدائق قلبك في فصل الربيع بعدما ترضع من كئوس الشوق.. أو تأتي انت اليّ فتجدني- امرأة فقدت عذريتها).

لما شاب الشعر على أعتاب الانتظار.. لاحت في تضاريس البدن معالم اقتراب الخلود الى النوم- السرمدي.

قرر ان يفقدها عذريتها.. فشرع يلملم اجزاء جسده المبعثر عبر الأجهزة التعويضية وان يقتحم القصر!!

بعد جهد استطاع الوصول للقصر..

اقعدته الصدمة من بعيد يتأمل مكوناتها.. كلاب تفوق الحصر اسفل الجدران تنهش في السلاسل المقيدة بها من الضيم.. وجدران عالية لمرمي البصر ارتفاعا و... و..

تحامل علي نفسه واستدار إلى نقطة الانطلاق وهناك اقام سرادق عزاء معلنا أن الربيع قد اسقط من دفتر أحوال السنة.

وحينما سألوه عن الفقيد قال:

أنا

◻

غربة النفس

من العدم .. حيث اللاشعور ..واللاوجود .. والصمت يطبق والسكون يسود والضوء لا يدرك بالعين المجردة .

كانت فكرة ، فصارت روحا تسبح في سموات الأكوان بلا توقف .. يملؤها عنفوان الخلود وحكمة السرمدية في انتظار الاشارة.

ومع قدوم الوحي ..تجسدت ، صارت لحما ودما وعظاما، بدأت بالعويل مع ساعات الهبوط الاولى على كوكب الارض ، كأنها طفل سيق للمجهول حيث الرين والظلمة والانحناء ، وما من احتجاج لها سوى البكاء بحرقة .

ومع نمو الجسد .. اخذت الروح تنسحب تدريجيا للإبراء من السقم ومن مادية قرينها المفرطة .

ولأن هناك اجسادا كثيرة ..ولكل مطالبه ،كان الصراع ، وفي الصراع ظلم وجور ،بالسلب أو الإيجاب .

بعد أن تنحت الروح وأقرت الانسحاب ..عز عليها أن ترى الظلمة تسيطر على الجسد ، شاركته بالنصح لكنه يملك المبررات والمنطق ، فرفض وتمادى .

الروح تتحسر عليه وهي تراه مفقودا ، بينما يراها قيدا لابد أن يحطمه .

ظل الصراع حتى صار هواء العدل ملوثا بالجور وهواء النقاء ملوثا بالصخب .

طال العمر ، وحانت ساعات الرجوع ، الجسد يتشبث بالحياة المؤقتة لأنه مؤمن بمنطق الارض .. والروح تتطاير سعادة لقرب العودة إلى الأصل ، حيث منطق المناطق وحقيقة الحقائق.

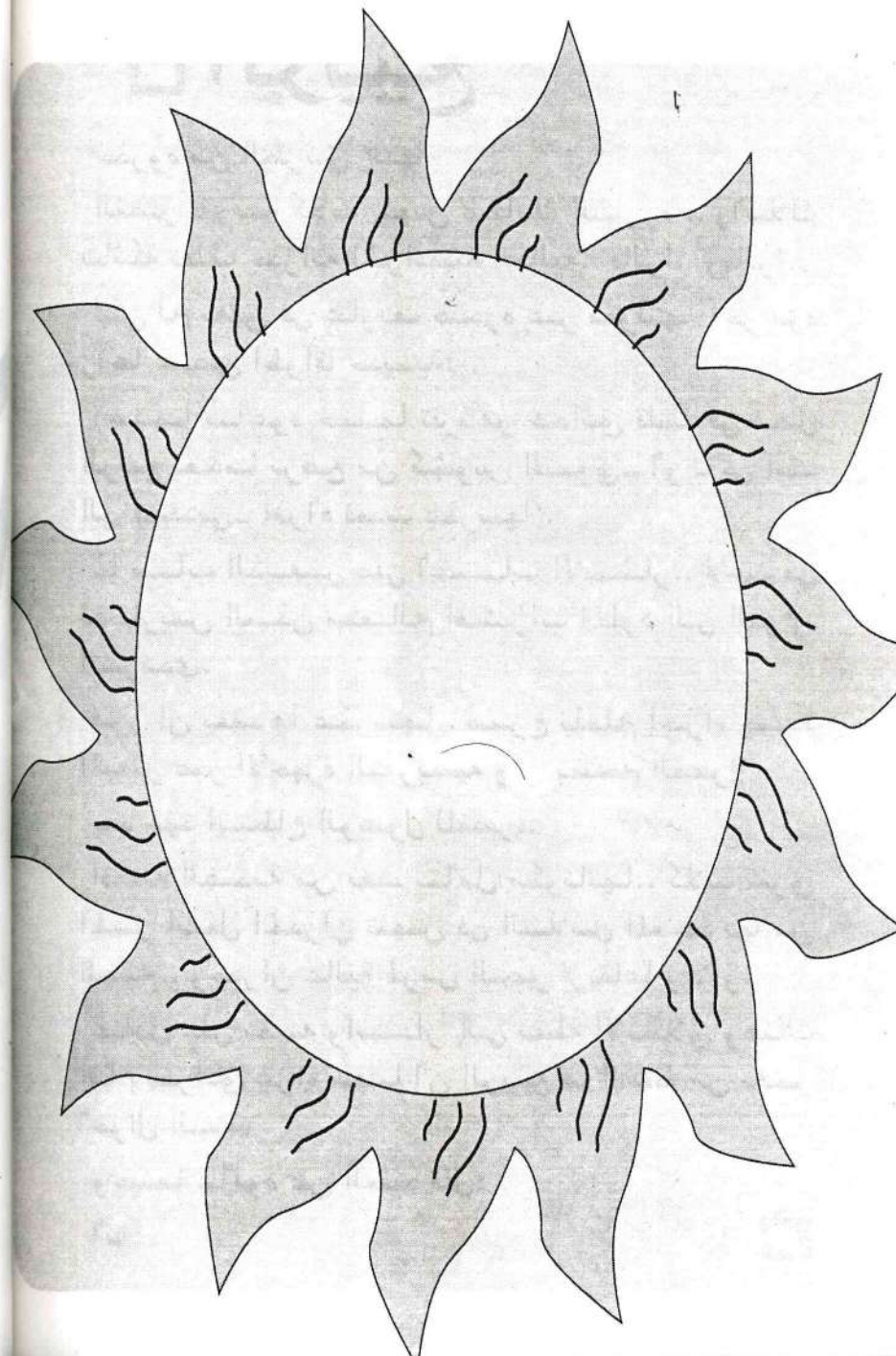

مغالاة

مؤشر الساعة يشير إلى النهاية مساء .. الصقيع ينتشر ويتكاثر.. الجمود غطى كل شيء حتى الهواء وأعطب تلقائية حركة الأرض فى مقتل.

الشكوى تكتظم فى النفوس وتعجز الألسنة ان تفصح عنها بعد ما تيبست العروق من اليأس ذى الصوت الأصدق.

البشر - جميعهم - يتوجهون ببصرهم إلى السماء - رغم أنهم لا يرونها - والعتمة العمياء تعم كل شيء .. يبحثون عن مصدر ضوء ولو لنجمة سقطت من شلال المجرات البعيدة المنحسرة يستمدون منه الدفء ويرون قبل الرحيل النور المفتقد..

أما العزيزة.. العصماء.. الشمس.. فيكفي ترديد ذكر اسمها فى تأجيل زيارة الموت ويدب الدم فى اوردة الناس.

البعض وهبوا لها انفسهم نذرا.. إن راؤها تشرق ثانية ولو على استحياء.. أما الآخرون فقرروا عبادتها.

بعدتعزز وافصاح صامت عن جوهرها.. عادت الشمس للتوهج فأغدقت على الكون الدفء.

مع أول شعاع لها.. حصدت ارواح من لم يقتلهم الجليد..المبتهجين بقدومها والذين أوفوا نذورهم لها.

أما من اتخذوها إلها كانوا هم الباقين.. ولأن للخالق مطلق الحرية فى عباده.. أمر الشمس بزيادة توهجها.

غلى ماء البحار.. وأصبح عبادها يشوون كما تشوى الشياه من وهجها حتى كفروا بها مع الموت الذى داعبهم كثيرا.

أرق

كنت مضطربا أيما اضطراب.. لذلك بحثت في صيدليتي الخاوية عن حبوب مهدئة فلم أجد، تناولت كوبا من [redacted] لعلي أنام لكن فشلت المحاولة.

فعلت مثلما أفعل عادة غي أحوال الأرق، أمسكت بالقلم والورقة واعتقدت أنني سأنزف كتابة.. لكنني وجدت نفسي لم أفعل سوى شخبطة كثيرة، كلمات، مشاعر متدفقة لكنها ناقصة.

ظللت هكذا حتى الصباح، عينان مثقلتان بالنوم وجسد طريح الفراش الوثير لكن لا نوم يأتي.

ارتديت ملابسي وذهبت للمشوار الذى كنت اعددت له بالأمس، حين قابلتها سألتها عن موقعي، فقالت لم يتحدد بعد.

تركتها واستقللت ميكروباصا غي رحلة العودة ولا أخفي انني كنت غاضبا جدا لكنني رغم ذلك اخذت اغط في نوم عميق.. في الميكروباص!!.

ترف

حينما كنت صغيرا.. كنت كثير الشكوى من أى شي يكدرني وظللت هكذا حتى سنوات قليلة مضت..

وكان البعض يتهمونني بالترف وكنت لا أصدقهم بل اسخر منهم لسوء تعاملهم مع شكايتي.

في أول تجربة حب.. فتاة يحبها عقلي وأخرى يحبها قلبي.. وكنت لا أدرى ما حقيقة مشاعرهما نحوى.. ظللت اعتصر ولم استطع البوح بمشاعرى للآخرين حتى لا يتهمونني بالجنون.

وحينئذ استطعت تفهم اتهام الناس لي بالترف في الصغر وصدقتهم.

رقم الايداع
بدار الكتب ٨٠٢٤/ ٩٩
الترقيم الدولى I.S.B.N

الوطنية للطباعة

ت/ ٥١٢٧٣٤٥ - ٢٩٧٣٣٣٨

تصميم الغلاف :

سيد مغربى

التصميم الداخلى :

حسن أمين حسن

مصطفى أنور